

مقاصد الاستخلاف

د. وائل نجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كلّ المتطلّعين إلى رضا الله، المستشعرين
لحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم في حمل الأمانة،
الجادّين بالعمل من أجل إعمار الأرض وإقامة العدل.

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين.

فإنّ الله وبعد أن خلق السموات والأرض والجبال،
عرض الأمانة عليها، فأبين أن يحملنها، وأشفقنا منها،
وحملها الإنسان الذي استحق التكريم من الله، فكرمه
ونعمّه وسخر له الأرض وما عليها، والسموات وما فيها،
ثمّ جعله خليفة في الأرض إلى حين، من أجل أعمارها
 وإقامة العدل والقسط فيها، وبعد أن ضلّ ولد آدم - أي
البشر - عن جادة الصواب، بعث الله له الرسل، وأنزل
الكتب، وخاتمها القرآن الكريم، ليبين للناس ما هم فيه،

وحتى يمضوا إلى ما وُجدوا من أجله، وفي الطريق الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

كثيرون يعتقدون أنّ الإسلام، وهو دين الله من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض وما ومن عليها، هو من أجل الآخرة، ويُسقطون من اعتبارهم وحسابهم أنّه دين الدنيا والآخرة لضمان سعادة الإنسان في الأولى، ونجاته وفوزه برضا الله وجنّته في الآخرة.

إنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً، بل جعل لكل مخلوق دوراً وهدفاً ووظيفة في الحياة، وكذلك جعل الله للإسلام مقاصد، ولآدم (عليه السلام)، كونه خليفة في الأرض، مقاصد يمكن أن نسمّيها مقاصد الاستخلاف، ولا بدّ من معرفتها والإطلاع عليها حتى يدرك المرء الغاية التي من أجلها كان تواجهه سواء كفر أو كجماعة.

إنّ الكثيرين قد حادوا في الممارسات التطبيقية العملية عن تلك المقاصد، فانحرفوا إلى مكان بات الدين يظهر وكأنّه منافٍ لسنن الكون والحياة.

إنّ من الضروري أن يعرف الإنسان المقاصد الأساسية الكلّية لتواجهه كخليفة في الأرض، ولرسالة الإسلام التي حملها الأنبياء والرسل من آدم (عليه السلام) إلى سيّدنا محمد (ﷺ) حتى تظلّ هذه الرسالة نوراً يستضيء به البشر في الدنيا والآخرة.

إنّ المسؤولية كبيرة على عاتق المسلمين أمة وأفراداً، حتى يتقدّموا بدينهم الذي ارتضاه الله لهم، من أجل قيادة البشرية وإنقاذها وإسعادها، ومن أجل إثبات أنّ هذا الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان، ودائم ما دامت السماوات والأرض، بل حتى هو عند الله الدين الدائم،

وهذا يتطلب فهماً دقيقاً عميقاً لهذا الدين، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال فهم مقاصده على وجه الخصوص حتى يجد العالم الحائر ضالته فيه.

إنّ هذا العمل المتواضع هو محاولة جادة من أجل البحث عن مقاصد تواجد آدم (عليه السلام) كخليفة في الأرض، منذ أن خلقه الله حتى يرث الله ومن عليها، وأيضاً عن مقاصد الإسلام، الدين الذي حمله الأنبياء والرسل على مرّ العصور والدهور. وأظنّ أنّ العالم بحاجة ماسّة اليوم لمعرفة هذه المقاصد وعيشها بشكل كامل حتى تستقيم الكثير من أموره، فإنّ وفقت لذلك فهو توفيق من الله، وإن لم أوفق فإنّه من تقصير وعجز البشر، وعلى الله التكلان وإليه المآب، والحمد لله ربّ العالمين.

بيروت في رمضان ١٤٤١ هـ

الموافق له أيار ٢٠٢٠ م

د. وائل نجم

خلق السماوات والأرض

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذي خلق الكون وما حوى، وخلق السماوات والأرض وما فيهنّ. قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ

لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۗ ﴿١﴾.

وفي آية أخرى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿١﴾. وقد ورد الحديث عن خلق الله للسموات والأرض في القرآن الكريم بصيغة "خَلَقَ" وَخَلَقَ" تسع وعشرين مرّة كلّها تؤكد على أن الله هو الخالق المطلع على كل ما يجري فيهنّ؛ الخبير بهنّ، والمدبّر لشؤونهنّ، الرازق لكل من فيهنّ أو عليهنّ.

كما بيّن لنا ربّنا أن خلق السموات والأرض وإعادة ذلك شيء هين لا يعجزه بشيء. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۗ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿^(١) . وَأَنَّهُ لَا يَتَعَبُ وَلَا يَعْبَىٰ بِهَذَا الْخَلْقِ وَلَا
 بغيره، قال تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ خَلْقُهُمْ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ
 يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۗ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٢) . بل
 أكد أيضاً على أنه قادر على أن يخلق مثلهم من دون
 حصر بعدد، ومن دون عجز. قال تعالى : ﴿ أَوْلَيْسَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ
 مِثْلَهُمْ ۗ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٣) .

١ - الروم ؛ ٢٧ .

٢ - الأحقاف ؛ ٣٣ .

٣ - يس ؛ ٨١ .

وأكثر من ذلك فقد أكد لنا ربنا على أمر مهم وهو
أن إرادته ماضية، وأنه إذا أراد شيئاً فيكفي أن يقول له
كُنْ، حتى يكون. قال تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ^ط وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
(١)، وهنا يؤكد لنا على مسألة خلق السماوات والأرض،
ثم يؤكد بعد ذلك على قدرته بحيث أنه إذا قضى أمراً،
أي إذا فرضه، فإنما يكفي أن يقول له كُنْ حتى يكون
ويصير واقعاً قائماً، في تأكيد على قوته وقدرته وعظمته
سبحانه وتعالى. وأكد على هذا المعنى في العديد من
الآيات ومنها: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ

١ - البقرة؛ ١١٧.

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ (١) . والحديث عن ذلك بهذه الصيغة
ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع وسبع سور .

وإضافة إلى كلمة "خَلَقَ" أو "خَلَقَ" ورد في القرآن
الكريم كلمة بديع السماوات والأرض مرتين، كما في
قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ^ط وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿
(٢) . وفي سورة الأنعام: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^ط

١ - النحل ؛ ٤٠ .

٢ - البقرة ؛ ١١٧ .

أَنْ يَكُونَ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً^ط وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ^ط
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

وبدع الشيء أنشأه وبدأه. والبديع: من أسماء الله
الحسنى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وبدع الخلق أي
بدأه (٢).

كما واستخدم ربنا للدلالة على خلقه السماوات
والأرض كلمة فاطر وقد وردت في ستة مواضع وست

١ - الأنعام ؛ ١٠١.

٢ - ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ)، لسان العرب، بيروت، دار
أحياء التراث العربي، تصحيح أمين محمد عبد الوهّاب ومحمد
الصادق العبيدي، ط ٣، س ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، ج ٦، ص
٣٤١.

سور، كما وأنّ في القرآن سورة باسم فاطر. قال تعالى :

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُوا لِيَا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١).

ووردت كلمة فطر السماوات والأرض مرّة في قوله

تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢).

١ - الأنعام ؛ ١٤ .

٢ - الأنعام ؛ ٧٩ .

وفطر الشيء يفطره فطراً فانفطر. وتفطر الشيء :
تشقق. وفطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم^(١) .

وفي موازاة ذلك، بيّن لنا ربنا أنه الوحيد القادر على
إمساك السماوات والأرض من أن تزولا. قال تعالى : ﴿
إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۗ وَلَئِنْ
زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا ۗ﴾^(٢).

والمسك بالشيء، حبسه. وأمسك بالشيء، احتبسه^(٣) .

١ - ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٢٨٦

٢ - فاطر ؛ ٤١.

٣ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ١٠٧.

إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، الَّذِي لَمْ يَعْزِ
 بِخَلْقِهِنَّ، وَالْقَادِرَ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُنَّ، وَالْمُمْسِكَ بِهِنَّ
 أَنْ تَزُولَا، لَمْ يَخْلُقْهُنَّ عَبَثًا وَلَا لَهْوًا أَوْ لَعِبًا، أَبَدًا عَلَى
 الْإِطْلَاقِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١). هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَا هِيَ وَمَقْصِدُ
 يُظْهِرُ فِي سِيَاقِ بَحْثِنَا لِاحْتِقَاقِ.

١ - الدخان ؛ ٣٨-٣٩.

خُلِقَ آدَمُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَتَكَرَّمَهُ

خلق آدم (عليه السلام)

آدم عليه السلام هو أبو البشرية. خلقه الله تعالى من طين الأرض. قال تعالى في أكثر من سورة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (١) . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ (٢) . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^ط وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣) . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾

١ - الحجر؛ ٢٦.

٢ - المؤمنون؛ ١٢.

٣ - السجدة؛ ٧.

(١). فأصل خلق الإنسان ونشأته تعود إلى آدم (عليه السلام)،
وآدم من التراب والطين.

وقد خلق ربنا تبارك وتعالى آدم على أفضل وأحسن
هيئة وصورة قياساً بالمخلوقات الأخرى التي منها ما
يدبّ على أربعة قوائم، ومنها التي تطير بأجنحة، ومنها
التي تزحف على بطنها أو غيرها. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢).

وبعد أن خلق الله آدم (عليه السلام) طلب الله من ملائكته
أن يكونوا على أهبّة الاستعداد للسجود لآدم عندما ينفخ

١ - الرحمن ؛ ١٤ .

٢ - التين ؛ ٤ .

فيه ربنا الروح. قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ
 خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿٧٦﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ
 رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗۥ سٰجِدِيْنَ ﴾ ^(١). وقال تعالى أيضاً : ﴿
 وَاِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلٰصَلٍ مِّنْ
 حَمَإٍ مَّسْنُوْنٍ ﴿٢٨﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ
 فَقَعُوْا لَهٗۥ سٰجِدِيْنَ ﴾ ^(٢).

وقد امتثلت الملائكة لأمر الله، غير أن إبليس أبى أن
 يسجد لأدم. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ

١ - ص ؛ ٧١-٧٢ .

٢ - الحجر ؛ ٢٨-٢٩ .

صَوَّرْتَكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
 إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا
 تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ^ط قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٨﴾ ^(١). لم يمتثل إبليس لأمر الله تعالى
 لأنه اعتبر أنه مخلوق أفضل من آدم. فآدم مخلوق من
 طين، وهو مخلوق من نار، وظنَّ إبليس أنَّ النَّارَ أفضل
 من الطين فلم يمتثل لقول الله تعالى، والمهمَّ في ذلك أنه
 لم يكن من الملائكة.

١ - الأعراف؛ ١١ - ١٢ .

ثم خلق الله من آدم زوجه حواء، فهما مخلوقان من غير أب ولا أم. قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۙ ﴾ (١). وفي آية أخرى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ ۚ سَخَّرَ لَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِمَّنْ بَعْدَ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ فَآفَىٰ تُصْرَفُونَ ۗ ﴾

﴿^(١). أشارت الآية إلى مسألة خلق حواء من نفس آدم،
ومن ثم تناسل وتكاثر البشرية عبر التزاوج والإنجاب.

وأما مسألة خلق السيِّدة حواء من آدم عليه السلام،
فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال :
((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ ، وَإِنَّ
أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ
وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ)) ^(٢).

١ - الزمر؛ ٦ .

٢ - ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ)،
صحيح البخاري، دمشق وبيروت، دار ابن كثير، ط ١،
١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، ص
٨١٩. أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم،
الرياض، دار طيبة، ط ١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م، كتاب الرضاع،
باب الوصية بالنساء، ص ٦٧٣.

وفيه إشارة ودلالة أنّ حواء خُلقت من ضلع من أضلع آدم (عليه السلام).

وبعد أن خلق الله آدم وحواء أسكنهما الجنة، وطلب منهما أن لا يقربا شجرة حددها لهما. قال تعالى : ﴿ وَيَعَاذُكُمْ اللَّهُ بِتِلْكَ الْشَّجَرَةِ أَنْ تُكَذِّبُوا حَدِيثَ إِبْلِيمَ ابْنِ هَٰذِهِ الْأُمَّمَاتِ أَسْكُنُ أَهْلَهُنَّ الْجَنَّاتِ فَكُلُوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمُ وَلَا تَقْرَبُوا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

غير أنّ الشيطان (إبليس) وسوس لهما وأغراهما حتى يأكلا من تلك الشجرة على أساس أنّها شجرة الخلد. قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ فَوَسَّوَسَ هُمَا ﴾

١ - الأعراف ؛ ١٩ .

الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا
 وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا
 مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا
 لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ۖ فَلَمَّا ذَاقَا
 الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
 مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۗ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ
 الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا إِنْ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٢١﴾

إلا أن آدم عليه السلام ومعه زوجه حواء تابا إلى
 الله فتاب الله عنهما، وأمرهما بالهبوط والسكن في

١ - الأعراف ؛ ٢٠-٢٢ .

الأرض إلى حين. قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ^(١). والعداوة هنا بين آدم وزوجه حواء من جهة وبين الشيطان الذي وسوس لهما من جهة أخرى.

وهذه القصة وردت أيضاً في سورة البقرة. قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

١ - الأعراف ؛ ٢٣ - ٢٥ .

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا
 كَانَا فِيهِ ^ط وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنَ
 رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ^ج إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾
 قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ^ط فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ
 تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ (١).

١ - البقرة : ٣٥-٣٨ .

ثم خلق الله من آدم وحواء البشرية عن طريق
 الزواج والإنجاب والتناسل والتكاثر. قال تعالى: ﴿
 الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن
 طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾^(١).
 وفي آية أخرى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
 رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ
 وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾^(٢).

١ - السجدة ؛ ٧-٨ .

٢ - النساء ؛ ١ .

تكريم آدم (عليه السلام)

لقد كرم ربنا تبارك وتعالى آدم (عليه السلام)، وأول صور هذا التكريم أنّ الله خلق آدم في أفضل صورة وعلى أحسن هيئة من بين سائر المخلوقات كافة. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١).

ثمّ طلب الله من ملائكته أن يسجدوا لآدم عندما ينفخ فيه الروح. والتكريم هنا جاء على هيئتين: الأولى عندما نفخ الله في آدم، المخلوق من طين، من روحه؛ والثانية عندما طلب من ملائكته أن يسجدوا أمام هذا

١ - التين ؛ ٤ .

المخلوق تقديراً له وامتناناً لأمر الله. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلٰصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗۤ رَسَدًا ﴿٢٩﴾ (١) . فأن يطلب الله تعالى من الملائكة، هذه المخلوقات العظيمة، والمقرّبة، والتي أوكل إلى بعضها الكثير والعديد من المهام الكبرى، أن يسجدوا لآدم (عليه السلام)، فهذا فيه تكريم كبير له ولشأنه.

كما وأنّ الله تاب على آدم وزوجه عندما أكلتا من تلك الشجرة في الجنّة بعد أن كان الله قد حدّهما من ذلك. قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِۥ كَلِمَاتٍ فَتَابَ

١ - الحجر ؛ ٢٨ - ٢٩ .

عَلَيْهِ ^ع إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ . وقبول التوبة من العبد إذا ما تاب وأناب واستغفر يُعدّ شكلاً من أشكال التكريم له.

ثم إن الله كرم آدم (عليه السلام) أن علّمه الأسماء كلها، وبعد أن عجزت الملائكة عن معرفة الأسماء، طلب من آدم أن يعلمهم إياها. قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ^ط إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَّبِعُكُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ^ط فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

١ - البقرة ؛ ٣٧ .

لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١﴾. وفي ذلك تكريم كبير لآدم.

يقول سيد قطب "إن الله أعطى آدم سرّ القدرة على
الرمز بالأسماء للمسميات بسرّ القدرة على تسمية
الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهي ألفاظ
منطوقة - رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة.
وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان في الأرض.
ويتابع : أما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية لأنّها
لا ضرورة لها في وظيفتهم" (٢).

١ - البقرة ؛ ٣١ - ٣٣.

٢ - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، ط ٧، س ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ج ١، ص ٦٧.

ثم جعله الله خليفة في الأرض، وهو اختيار فيه
 تكريم كبير لآدم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ
 إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^ط قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
 يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ
 لَكَ^ط قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١). وفيه تكريم آخر
 لذريته من بعده. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي
 الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

١ - البقرة ؛ ٣٠.

٢ - يونس ؛ ١٤.

ثم سَخَّرَ اللهُ تَعَالَى لِأَدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كُلَّ مَا يَحِيطُ بِهِ،
 وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مَكْرَمٌ عِنْدَهُ، وَرَزَقَهُ مِنْ كُلِّ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلَهُ
 عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً عَظِيماً. قَالَ تَعَالَى : ﴿
 وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
 تَفْضِيلاً﴾ (١) .

وَمِنْ صُورِ تَكْرِيمِ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَيْضاً أَنَّ اللَّهَ أَخَّرَ
 حِسَابَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَعْطَاهُ فُرْصَةَ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ
 وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَمْ يَبَادِرْهُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى الْفَوْرِ عَلَى أَيِّ فِعْلٍ
 يَصْنَفُ فِي خَانَةِ الْآثَامِ. قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

١ - الإسراء ؛ ٧٠ .

يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ . وقال أيضاً : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠٦﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٠٨﴾ . وفي كل ذلك تكريم للإنسان ولد آدم .

١ - الشورى ؛ ٢٥ .

٢ - الزمر ؛ ٥٣ - ٥٥ .

إنّ تكريم آدم (عليه السلام) بكل هذه الصور والأشكال،
حمّله مسؤولية مقابل ذلك سيأتي الحديث عنها في
معرض الحديث عن مقاصد التكليف بالخلافة.

آدم وحمل الأمانة

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وهذه من مخلوقاته العظيمة، والعظيمة جداً. تخيل سعة وكبر السموات، وقوة وثقل الجبال، وحجم الأرض، ومع ذلك فإن هذه المخلوقات، على عظمتها وكبرها، أبت أن تحمل الأمانة المعروضة عليها، وأشفقن منها (خفن) إِمَّا لخوفها وقلقها من عدم القيام بالمهمة والتكليف المترتب عليها، وبالتالي التقصير بها، وبالتالي الحساب عليها، وإِمَّا لحكمة يعلمها الله. غير أن آدم حملها. قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَا أَنْ نَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا
وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١﴾ .

والأمانة هي من الأمان، أو هي من الائتمان.
والأمان ضد الخوف. والأمانة ضد الخيانة. والإيمان
ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضد التكذيب.
وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبیر أنهما قالَا في آية
الأمانة: هي الفرائض التي افترضها الله تعالى على
عباده. وقال ابن عمر : عُرِضت على آدم الطاعة
والمعصية، وعُرِف ثواب الطاعة وعقاب المعصية،
وقال: الأمانة عندي هي النية التي يظهرها باللسان من

١ - الأحزاب ؛ ٧٢.

الإيمان ويؤديه من جميع الفرائض بالظاهر، لأن الله
انتتمنه عليها ولم يظهر عليها أحداً من خلقه (١).

والأمانة هي الفرائض المفروضة، أو النيّة التي
يعقدها فيما يظهره باللسان من الإيمان، ويؤديه من
جميع الفرائض في الظاهر، لأنّ الله انتتمنه عليها، ولم
يظهرها لأحد من خلقه، فمن أضمر من التوحيد مثل ما
أظهر فقد أدّى الأمانة. (٢).

١ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٢٥.

٢ - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي (... - ٨١٧ هـ)،
القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٨، ص
١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ص ١١٧٦.

وذهب الجمهور إلى أنّ الأمانة كل شيء يُؤْتَمَن
الإنسان عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، فالشرع
كلّه أمانة، ومعنى الآية، إنّنا عرضنا على هذه
المخلوقات العظام أن تحمل الأوامر والنواهي ولها
الثواب إنّ أحسنت والعقاب إنّ أساءت، فأبّت هذه
المخلوقات وأشفقت (خافت وحذرت)، فيحتمل أن يكون
هذا بإدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أن يكون هذا العرض
الذي ذكره الله على من فيها من الملائكة، وحمل
الإنسان الأمانة، أي التزم القيام بحقها وهو في ذلك
ظلم لنفسه جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأويل ابن
عباس وابن جبير^(١).

١ - عبد الرحمن بن محمد بن محمود الثعالبي، تفسير
الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن، بيروت،
مؤسسة الأعلی للمطبوعات، جز ٣، ص ٢٣٨ .

كما وأن الله ذكر الأمانة بصيغة الجمع في أكثر من موضوع في القرآن الكريم، حاضاً الناس فيها على القيام بأدائها إلى أصحابها دونما نقص أو تجاوز أو مماطلة، ومن هذه الآيات، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١). قال أهل التفسير إن الخطاب عامٌ لكل المكلفين، كما وأن الأمانة تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم، سواء كانت حقوق الله، كالصلاة

١ - النساء ؛ ٥٨.

والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، أو حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها (١).

وفي حديث النبي (ﷺ) : ((إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)). قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: ((إِذَا أَسْنَدَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)) (٢). ومعنى إسناد الأمر إلى غير أهله أي: تولاه غير أهل الدين والأمانة ومن يعينهم على الظلم والفجور، وعند ذلك يكون الإئمة قد ضيعوا الأمانة التي فرض الله عليهم حتى يُؤتمن الخائن ويُستخون الأمين، وهذا إنما

١ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، بيروت، دار القرآن الكريم، ط ٤، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م، المجلد الأول، ص ٢٨٥.

٢ - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل العلم، ص ٢٦.

يكون عند غلبة الجهل وضعف أهل الحقّ عن القيام به
(١).

وفي أيامنا هذه نرى أنّ إضاعة الأمانة وإسناد
الأمر إلى غير أهله بات سياسة عامة في الكثير من
المجتمعات والدول، وهو ما يؤشر إليه حجم الفساد الذي
بات مستشرٍ في هذه المجتمعات، والذي يدفع ثمنه
الناس الأبرياء من أموالهم وحقوقهم وأحياناً من أعمارهم
وحياتهم.

١ - سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الإنصاري
الشافعي المعروف بابن الملقّن (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ)، التوضيح
لشرح الجامع الصحيح، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولى قطر، الدوحة، دار الفلاح، المجلد ٣ ، ص ٢٥٦.

آدم الخليفة

لقد ارتضى آدم (عليه السلام) أن يحمل الأمانة ويمضي بها إلى حيث يجب أن يمضي، فكان الخبر من الله لملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة، وهذا الخليفة هو آدم (عليه السلام). قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

١ - البقرة ؛ ٣٠.

وجاعل من فعل جعل. وجعل الشيء يجعله جعلاً :
أي وضعه. وجعلنا من الماء كل شيء حيّ: أي خلقنا.
وجعلهم كعصف مأكول: أي صيّرهم (١).

وخليفة من فعل خلف. وخلفه يخلفه : صار خلفه.
واختلفه : أخذه من خلفه. واختلفه وخلفه وأخلفه : جعله
خلفه. واستخلف فلاناً من فلان : أي جعله مكانه.
وخلف فلان فلاناً : إذا كان خليفته. وخلفته : إذا جئت
بعده (٢).

١ - ابن منظور؛ لسان العرب، ج ٢، ص ٣٠١.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٨٣-١٨٤.

وخليفة : قيل لأنه يخلفه من بعده. وقيل لأنه يخلف من قبله. والوجهان سائغان في اللغة، أو يكون فعياً بمعنى فاعل وبمعنى مفعول (١).

وخليفة وجمعه خلفاء: يعني الإمام الذي ليس فوقه إمام؛ الذي يخلف ويقوم مقامه؛ السلطان الأعظم أو الملك أو الحاكم. والخلافة: الإمارة؛ النيابة عن الغير.. إما لغيبة المنوب عنه أو لموته أو لعجزه أو لتشريف

١ - سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الإنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المجلد ١٩، ص ٢٧٥.

المستخلف. والمعنى الشرعي للخلافة
الإمامة "الأقرب"^(١).

إنَّ الله أخبر في هذه الآية الكريمة ملائكته في وقت
سابق وماضي، وأخبرنا في وقت لاحق أنَّه جعل آدم
خليفة في الأرض، بمعنى أنَّه وضعه وصيِّره خليفة
لتكون له الإمرة والسيادة في إدارة ما يحيط به في هذا
الأرض.

يقول سيّد قطب : "أول اعتبار هو أنَّ الإنسان سيّد
هذه الأرض، ومن أجله خُلِق كل شيء، فهو أعزّ وأكرم

١ - ابن منظور ؛ لسان العرب، ج ٤، ص ١٨٧.

وأعلى من كل شيء مادي ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً" (١).

فآدم خليفة، ولا ندري من خلف لأنّ الله لم يعلمنا بذلك، بل اكتفت الآية الكريمة لتؤكد على أنّ الله جعله خليفة في الأرض.

وحتى تتضح الصورة بشكل أدق لنا أن نضرب مثلاً لتقريب الصورة حيث أنّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ارتضوا يوم سقيفة بني ساعدة، وبعد وفاة النبي (ﷺ) أن يعينوا ويبايعوا أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) خليفة لرسول الله (ﷺ). بمعنى صيروا وعينوا أبا بكر في مقام النبي للقيام بمهام الإدارة والقيادة، وليس النبوة والرسالة،

١ - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٧٢.

فلا نبِيّ ولا رسول بعد النبيّ محمد (ﷺ). قال الله تعالى
: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١).
فالنبيّ محمد (ﷺ) هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

إنّ ما فعله الصحابة باختيارهم وتعيينهم لأبي بكر
يعني أنّ المُعَيَّن (بفتح الياء) وهو أبو بكر حاضر، وأنّ
المُعَيَّن (بكسر الياء) وهم الصحابة المتواجدون في تلك
اللحظة في السقيفة حاضرُونَ أيضاً.

وآدم (عليه السلام) كان معيّناً من الله خليفة في الأرض
ليقوم بأداء مهام الأمانة الموكولة إليه على الوجه الذي
أراده الله تعالى.

وقد أخبر ربنا تبارك وتعالى أنه جعل النبي داوود
 (عليه السلام) خليفة في وقت من الأوقات لوظيفة إقامة العدل
 بين الناس بعد أن فشا الظلم والتسلط والاستبداد، وبعد
 أن بات الأمر يحتاج إلى هذه الوظيفة والدور. قال
 تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم
 بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ
 اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١).

فالخليفة هو المستخلف على شيء للقيام بإدارته
 والحفاظ عليه واتخاذ ما يلزم حياله، وآدم (عليه السلام) خليفة
 في الأرض ارتضى عن قبول ورضا أن يقوم بالوظيفة

المنوطة به، وحمّل الأمانة على ضعفه وثقلها، وسيظل بنوه مسؤولين عن هذه الأمانة، وسيظلون خلفاء له في هذه الوظيفة والدور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

مقاصد القيام بالخلافة

مقاصد القيام بالخلافة

إنَّ الله جعل آدم (عليه السلام) خليفة في الأرض ليقوم بأعباء الأمانة التي ارتضى أن يحملها ويقوم بها، وهذه الأعباء أو الأمانة يمكن أن نسميها مقاصد هذه الخلافة، أو هذا الاستخلاف. فالإنسان لم يُخلَق عبثاً، ولم يُكَلَّف بالخلافة من الله عبثاً، ولم يُسَخَّر له ما يحيط به عبثاً.

إنَّ الخلافة في الأرض لها أهداف ومقاصد بينها وعرفها ربنا تبارك وتعالى، ولا بدَّ أن يقوم بها الإنسان، وإلاَّ اعتُبر مُخلّاً بالتعهد الذي قطعه على نفسه، وبالتالي فإنّه سيكون مسؤولاً أمام الله، وسيحاسب على ذلك ليُجزى على عمله.

إنّ فهم مقاصد الاستخلاف يوفّر الكثير من الأعباء، ويحدّد الكثير من المسؤوليات، ويرسم الطريق لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة إذا ما قام الإنسان بتطبيق وتنفيذ هذه المقاصد في حياته الخاصة والعامة.

إنّ أبرز وأهم مقاصد الاستخلاف تحدّدت في القرآن الكريم من خلال الآيات التي حدّدت وشرحت وظيفة الإنسان في الأرض. وإنّ هذه المقاصد الأساسية يمكن أن تتلخّص بثلاثة مقاصد هي : عبادة الله، إعمار الأرض، وإقامة العدل.

العبادة

أول وأهم مقصد من مقاصد الخلافة في الأرض، وهي المكان الذي جعله الله مأوى للإنسان إلى حين، أو إلى يوم القيامة، هو العبادة.

فالله تعالى الذي خلق السموات والأرض، وما فيهما من خيرات ونعم وآيات ومعجزات، وخلق الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى، سخر للإنسان هذه السموات والأرض وما فيهما وبينهما وعليهما، كما سخر له سائر المخلوقات الأخرى، يستحق الثناء والشكر والطاعة والعبادة من الإنسان. قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنْ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿١﴾
 وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنىٰ آدَمَ
 وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢) .

فالله سبحانه وتعالى الذي كرم آدم وذريته، وتاب
 عليه وأنذره، وأعطاه فرصة للتوبة والإنابة، يستحق

١ - فاطر ؛ ٣ .

٢ - الإسراء ؛ ٧٠ .

الشكر والثناء والعبادة من الإنسان. قال تعالى : ﴿ وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١).

فكلّ من الجنّ والإنس مطالب بعبادة الله وشكره والثناء عليه، وهو ما طلبه الله وفرضه عليهم ليقوموا به ويؤدوه بملء إرادتهم وحريرتهم واختيارهم. فإذا عبدوا الله وشعروا بالدونيّة نحوه، والنقص والفقر تجاهه، وبالعرّة تجاه غيره، استحقّوا الأجر والثواب والتكريم في الآخرة. قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ ^(٢). وفي آية

١ - الذاريات ؛ ٥٦.

٢ - النازعات ؛ ٤٠ - ٤١.

آخري : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١).

وأما إذا ما ضلّ وخرج عن جادة الصواب وأعرض
عن عبادة الله واستكبر عنها، ولم يشعر بالدونية
والنقص تجاه الله، فإنّ ذلك سيكون مدعاة لحسابه وإنزال
القصاص والعقاب به، بعد أن سخر له الله كل ما في
السموات والأرض، وكرّمه التكريم اللائق، فكان له في
الدنيا الخزي، وفي الآخرة العقاب. قال تعالى : ﴿
فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^ط وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ^ع لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢). فمن ظلم نفسه وكذب بما

١ - السجدة ؛ ١٩.

٢ - الزمر ؛ ٢٦.

أنزل الله وأعرض عن ذكر الله وعبادته كان له في الدنيا الخزي (الذل والهوان) وفي الآخرة العذاب العظيم. كما بين أن من يعرض عن ذكر الله وعبادته فإن له معيشة ضنكا (ضيقة) في الحياة الدنيا، ثم يُحشر يوم القيامة أعمى . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) .

كما بين الله تعالى هذه العاقبة في آية أخرى. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢). وفي آية أخرى

١ - طه ؛ ١٢٤ .

٢ - السجدة ؛ ٢٠ .

: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١).

وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن ثواب المؤمن العابد، وعن عقاب العاصي الذي لم يقدم الطاعة والعبادة، في الآخرة.

لقد قدر الله نهاية لحياتنا في هذا الكون، غير أنه لم يُطلعنا على توقيت هذه النهاية، سواء لنا كأفراد، أو للبشرية جمعاء. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢).

١ - النازعات ؛ ٣٧ - ٣٩.

٢ - إبراهيم ؛ ٤٨.

وفي آية أخرى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ
 مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۗ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (١). فتلك
 اللحظة التي تنتهي فيها حياة الإنسان في هذه الأرض،
 فيصبح في أرض غير هذه الأرض، هي يوم العرض
 والحساب على ما قدم الإنسان في هذه الحياة الدنيا. قال
 تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ
 يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴾ (٢). ثم بعد ذلك يكون
 الثواب والعقاب على العمل.

١ - الروم ؛ ٥٥.

٢ - الزلزلة ؛ ٧-٨.

غير أنّ الله أكّد على أنّه ليس بحاجة إلى عبادة
الإنسان، سواء عبّد الله أو استغنى. فالله هو الغني عن
عباده، وهم الفقراء بحاجة إليه. قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ^ع وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾
(١).

وفي هذا السياق روى أبو ذر الغفاري رضي الله
عنه، عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه
قال : ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ،
وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلّم ضال
إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلّم
جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا

١ - فاطر ؛ ١٥.

عبادي كلکم عار إلا من کسوته ، فاستکسوني أکسکم ،
يا عبادي إنکم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر
الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لکم ، يا عبادي إنکم
لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني
، يا عبادي لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم کانوا
على أتقى قلب رجل واحد منکم ما زاد ذلك في ملكي
شيئا ، يا عبادي لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم
کانوا على أفجر قلب واحد منکم ما نقص من ملكي
شيئا ، يا عبادي لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم
قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت کل واحد
مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط
إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالکم أحصیها

لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن
وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)) (١).

فهي إذاً أعمالنا تُحصى لنا وعلينا ثمّ يوم القيامة
نُجازى عليها. إلا أنّ هذه العبادة التي نقدّمها لله تتصل
أيضاً بما يمكن أن يجعلنا نتحرك إيجاباً في محيطنا من
أجل إتمام القيام بمقاصد الخلافة الأخرى من الإعمار
وإقامة العدل.

ومفهوم العبادة في الإسلام واسع جداً يكاد لا يحده
حدٌّ. وأفضل أنواع هذه العبادات الفرائض التي فرضها
الله على عباده من صلاة وصوم وزكاة وحجّ وغيرها،
ومفتاحها جميعاً شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً

١ - صحيح مسلم، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم
الظلم، ص ١١٩٨.

رسول الله. قال رسول الله (ﷺ) : ((" إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))^١.

فأفضل أنواع العبادة على الإطلاق هو أداء الفرائض التي فرضها الله على الإنسان على الهيئة والكيفية التي فرضها، والتي بيّنها الأنبياء والرسل، وآخرهم وخاتمهم سيّدنا محمد (ﷺ).

١ - صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ص

لقد ختم الله رسالات السماء برسالة سيّدنا محمّد
 (ﷺ)، فلا نبيّ بعده، ولا رسالة بعد رسالته. قال الله
 تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا
 أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ
 وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
 النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ^٤ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ^٥ الْيَوْمَ
 يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ^٦
 الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
 وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا^٧ فَمَنْ أَضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ
 مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ^٨ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^٩ ﴾ (١). فالله تعالى

قد أتمّم وأكمل الدين، وهو الإسلام، بتمام وكمال رسالة
 سيّدنا محمّد (ﷺ). فمن أتى بالإسلام ديناً يوم القيامة،
 قبل الله منه عمله، ومن أتى بغير الإسلام، ردّ الله عليه
 عمله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ^ط
 وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^ط وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾^(١). وفي آية أخرى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ
 غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢).

١ - آل عمران ؛ ١٩ .

٢ - آل عمران ؛ ٨٥ .

وأما الفرائض التي فرضها الإسلام، والتي يتقرب بها المسلم إلى الله، فهي خمس فرائض. عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان)) (١).

فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي رأس العبادات لأنها تنقل الإنسان من حالة الشرك أو الكفر بالله إلى حالة الإيمان به والتسليم له. وهي مفتاح

١ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي بُني الإسلام على خمس، ص ١٢. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي بُني الإسلام على خمس، ص ٢٨.

العبادات لأنَّ الإنسان لا يُقبل منه أيَّ عمل إذا لم يأتِ يوم القيامة مسلماً، وقد ورد ذلك في الآية الكريمة من سورة آل عمران، "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً لا يُقبل منه". فهي باب الدخول إلى الإسلام، وبعدها تأتي سائر العبادات والفرائض.

أما الفريضة الثانية التي تلي الشهادة فهي الصلاة، وقد فرضها الله على المسلمين، وورد ذلك في القرآن الكريم، بشكل مباشر، وبصيغة "اقموا الصلاة" في ثلاث عشرة آية، منها. قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(١).

١ - البقرة؛ ٤٣.

ويؤديها المسلم في كل يوم وليلة خمس مرات في
أوقات معيّنة ومحددة، وعلى هيئة معيّنة أقرّها رسول الله
(ﷺ) تشتمل على القيام، وقراءة القرآن، والركوع،
والسجود، وغيرها، وتحسب بالركعات. فالفجر ركعتان،
والظهر أربع ركعات، والعصر أربع ركعات، والمغرب
ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات. قال تعالى: ﴿
فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (١).

ولأداء الصلاة، وحتى تكون صحيحة، هناك
شروط لا بدّ من توفّرها، وأبرزها النية، والوضوء.

١ - النساء؛ ١٠٣.

ثم هناك الفريضة الثالثة التي غالباً وردت في القرآن
الكريمة مقرونة بفريضة الصلاة، وهي فريضة الزكاة،
وقد وردت في القرآن الكريمة بصيغة " آتوا الزكاة" اثنتي
عشرة مرة في عدة سور. منها قول الله تعالى : ﴿

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾
(١).

والزكاة في اللغة هي النماء والزيادة. وهي حق
معلوم يُؤخذ من الأغنياء ويردّ إلى الفقراء. عن ابن
عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) بعث معاذًا إلى
اليمن .. فذكر الحديث، وفيه: ((أَنَّ اللَّهَ قد افترض
عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ في

١ - البقرة ؛ ٤٣ .

﴿فَقَرَأْتَهُمْ﴾ (١). وفي القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ
﴾ (٢). وقوله تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ^ط فَرِيضَةً
مِّنَ اللَّهِ ^ط وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣). والصدقات في

١ - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ص ٣٣٨.

٢ - المعارج ؛ ٢٤ - ٢٥.

٣ - التوبة ؛ ٦٠.

هذه الآية تعني الزكاة المفروضة. أما الصدقات من غير الزكاة فصاحبها حرّ التصرف بها.

وتؤدى الزكاة بحسب الهيئة التي أقرّها الرسول (ﷺ)، فلا بدّ أن يبلغ المال النصاب، وأن يحول عليه الحول (العام)، وتدفع بنسبة ٢,٥% من المبلغ المالي. كما هناك أنواع من الزكاة، كزكاة الزروع والتجارة وغيرها.

والفريضة الرابعة هي فريضة الصوم. وهي عبادة كانت مفروضة على من سبق هذه الأمة من أتباع الأنبياء والرسل السابقين، وعلى هيئة مخصوصة. وقد فرضها الله على المسلمين بعد بعثة الرسول محمّد (ﷺ) فأمرهم أن يصوموا شهر رمضان بشكل كامل. قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢٢﴾
 أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
 فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ
 طَعَامُ مَسْكِينٍ ۗ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۗ وَأَنْ
 تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ
 الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ
 الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۗ وَمَنْ
 كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ
 بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ

وَلْتُكَبِّرُوا لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿١﴾.

والصيام هو الانقطاع عن الطعام والشراب ومباشرة النساء من طلوع الفجر الصادق حتى غروب الشمس. ولا بدّ فيه من نيّة صادقة، والابتعاد عن ما يؤذيه أو يفقده مقصده بحيث لا يصوم فقط البطن، إنّما كل الأعضاء، فاللسان يصوم عن الخوض فيما يغضب الله، واليد تصوم عن البطش، والعين عن النظر إلى ما حرّم الله، والسمع كذلك، وهكذا. فإذا صام المسلم شهر رمضان، ودفع زكاة الفطرة قبل أداء صلاة عيد الفطر، يُرفع صيامه وعمله إلى الله تعالى.

١ - البقرة ؛ ١٨٣ - ١٨٥.

والفريضة الخامسة هي الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وهي مفروضة على من استطاع إلى ذلك سبيلاً مرة واحدة في العمر. قال تعالى: ﴿ إِنِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْبَيْتِ وَضَعُوا لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله (ﷺ) فقال: ((أيها الناس قد فرض عليكم الحج، فحجوا)). فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً،

١ - آل عمران ؛ ٩٦ - ٩٧.

فقال رسول الله (ﷺ) : ((لو قُلْتُ: نعم لوجبَت ولما استطعتم))^(١).

وأما الاستطاعة فهي أن يملك الزاد والراحلة، وهي أيضاً على أقسام: "تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره"^(٢). واليوم قد تدخل في إطار الاستطاعة عوامل جديدة لم تكن من قبل، كالأجراءات المعتمدة من قبل الحكومات القائمة على شؤون الحج والمقدسات. أو حتى ما يتصل بالمرض وما سوى ذلك.

١ - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ص ٦٠٨.

٢ - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٠١ - ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي، ج ٢، ص ٣٨٥.

والحج يكون في وقت معلوم من العام في شهر ذي
الحجة، وعلى هيئة معلومة معروفة مأخوذة عن رسول
الله (ﷺ). عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن
النبي (ﷺ) قال : ((خذوا عني مناسككم))^(١).

ثم إن أفضل شيء بعد الفرائض يتقرب به الإنسان
إلى الله هو السنن. والسنن هي العبادات التي سنّها
الأنبياء والرسل لأممهم، وسنّها رسولنا الكريم محمّد
(ﷺ) للناس كافة لأنه رسول للعالمين. قال تعالى : ﴿

١ - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة
العقبة، ص ٥٨٩. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (..
- ٣٠٣ هـ)، كتاب المجتبى المعروف بالسنن الوسطى، دار
التأصيل، ج ٥، كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار،
ص ٤١٤.

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا
 يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۗ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
 فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾. وفي آية أخرى : ﴿ لَقَدْ كَانَ
 لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
 وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢). يقول ابن كثير: هذه

١ - الحشر ؛ ٧.

٢ - الأحزاب ؛ ٢١.

الآية أصل كبير في التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وأحواله (١).

والأسوة : أي القدوة. وأتتس به : أي اقتد به وكن مثله (٢). والسنة لغة هي الطريقة محمودة كانت أم مذمومة، ومنه قول النبي (ﷺ) : ((من سنّ في الإسلام سنة حسنة، له أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جزء ٦، ص ١٧٠.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ١٤٧.

الإسلام سنّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)) (١).

وعرّف علماء الحديث السنّة على أنّها ما أثر عن النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلِقِيَة أو خُلُقِيَة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها. وهي في اصطلاح الأصوليين : ما نُقل عن النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير (٢).

١ - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة، ص ٤٥٢.

٢ - مصطفى السباعي، السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، س ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م، ص ٦٥.

فيما رأى غيرهم أنّ السنّة هي الحياة التي نهجها الصحابة الأوئل مع النبيّ وفي زمنه . يقول الدكتور حسن الترابي : "السنّة في مصطلحي هي واقع الإسلام لعهد القرآن وحياة الرسول (ﷺ) فهي تلك الحياة التي نهجها أولئك المؤمنون الأوائل في محاولة عملية لتمثّل مقالات الدين الحق وتحقق تكاليفه على صعيد الواقع العملي في إطار ظرف معين في المكان والزمان . تلك الحياة هي النموذج الحق الذي نتخذه معياراً لازماً ونلتزمه سنّة ولا نلتزم بعده سنّة إلا أن نراها امتداداً لمغزاه" (١).

١ - حسن الترابي، الدين والفن، جدّة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م، ص ٩٥.

وقد حثَّ النبيَّ (ﷺ) على اتباع سنَّته والتزامها. قال
 (ﷺ) للصَّحابة في موعظة لهم : ((فإنَّه من يعش منكم
 فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاءِ
 الراشدين المهديينَ من بعدي عَضُوا عليها بالنَّواجِذِ))
 (١). وفي حديث آخر رواه أبو هريرة عن صخرِ رضي
 الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((ما نهيتكم
 عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم؛

١ - رواه أبو داود، باب في لزوم السنَّة، ج ٧، ص ١٦. أبو
 عيسى محمد بن عيسى الترمذي (... - ٢٧٩ هـ) ، الجامع
 الكبير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٦م، المجلد
 الرابع، باب ما جاء في الأخذ بالسنَّة واجتناب البدع، ص ٤٠٨.

فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم))^(١).

فأداء السنن التي سنّها رسول الله (ﷺ) هو عبادة يُؤجر عليها الإنسان الأجر الكبير دون أن يترتب على تركها عقاب، وإن لحق تاركها والراغب عنها لوم أو عتاب أو حرمان من شفاعة النبي (ﷺ) يوم القيامة. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي (ﷺ) يسألون عن عبادة النبي (ﷺ)، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي (ﷺ)، قد غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال أحدهم: أما أنا فإنّي أصلي اللّيل أبدا، وقال آخر:

١ - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ص ٦٠٨.

أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله (ﷺ) إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟!، أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب (أعرض) عن سنتي فليس مني)) (١).

فالسنة هي شكل من أشكال العبادة.

وكذلك فإن كل ما يقوم به الإنسان وبيتغي به وجه الله فهو عبادة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة. ومساعدة الآخرين بأي وسيلة عبادة. والتبسم بوجه الأخ والقريب عبادة. والإمتناع عن محارم الله عبادة. والالتزام بحلال الله عبادة. والصدقة القليلة أو

١ - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ص ١٢٩٢.

الكثيرة عبادة. فعن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب رسول الله (ﷺ) قالوا له : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور (الأغنياء) بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال (ﷺ): ((أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تهليله صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة . وأمر بمعروف صدقه ، ونهي عن منكر صدقه ، وفي بُضْع أحدكم صدقه)). قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : ((أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له به أجر))^(١).

١ - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب أن اسم المعروف يقع

بناء عليه فإنّ كلّ ما يقوم به الإنسان ويبتغي به وجه الله ورضاه هو عبادة يؤجر عليها ويكون له فيها نصيب من الثواب.

غير أنّ كل هذه العبادات التي تقرب إلى الله وترجو عفوه وغفرانه ورضاه تحتاج إلى نية صادقة مخلصة، خالية من الرياء ومن أيّ مقصد آخر، فالله لا يقبل من العمل والطاعة والعبادة إلّا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى

على كل نوع من المعروف، ص ٤٤٧.

الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه))^(١).

أمّا إذا فقد العمل والطاعة النية الصادقة فلا أجر ولا ثواب عند الله لصاحبها.

والعبادة تكون بالجوارح عندما يؤدي الإنسان عملاً عبادياً بيده أو رجله سواء كان فريضة أو سنة، كالصلاة والزكاة والصوم والجهاد وغير ذلك مما يؤديه المرء بهذه الجوارح.

١ - صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ص ٧. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب إتمام الأعمال بالنية، ص ٩٢٠.

وتكون العبادة باللسان وذلك من خلال الذكر وتلاوة القرآن والدعاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والكلمة الطيبة وغير ذلك مما يكون باللسان. ومثالاً لذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): ((كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)) ^(٢). فهذه من الأعمال

١ - إبراهيم ؛ ٢٤.

٢ - صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، ص ١٥٩٦. وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ص ١٢٤١.

التي يقوم بها اللسان وفيها الأجر والثواب العظيم عند الله سبحانه وتعالى، فهي عبادة باللسان تقرب إلى الله.

والعبادة تكون أيضاً بالقلب والعقل أو ما يمكن أن نسميه الشيء الجواني الداخلي، وذلك من خلال خشوع القلب واستسلامه لله. ومن خلال إطلاق العقل للتأمل والتفكير والتدبير. عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَوْقُوفاً عَلَيْهِ، قَالَ: "تَفَكَّرْ سَاعَةً حَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ" (١). وقال الله تعالى عن التفكير والتدبير: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

١ - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، ج ١، فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله عز وجل وفي حدث العالم، ١١٧، ص ٢٧٢.

مُبْرِكٌ لِيَدَّبُرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ .

فالتدبّر والتفكّر والتأمّل في آيات الله ومعجزاته وخلقّه كلّها من الأعمال القلبية والعقلية التي تزيد الإيمان في القلب والقرب من الله، فهي من العبادات الجوانية الداخلية التي تزرع الطمأنينة في النفس. وبالتأمّل والتفكّر في خلق الله ومعجزاته في الأرض يزداد المرء علماً، وكلّما ازداد علماً ازداد إيماناً وخشية من الله. قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ الْمُخْتَلِفِ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢).

١ - ص ٢٩ .

٢ - فاطر ؛ ٢٨ .

إنَّ العبادة بهذا الشكل تحوّل حياة الإنسان كلّها إلى طاعة وعبادة لله، يُؤجر ويُثاب عليها يوم القيامة، وتنعكس بشكل إيجابي على حياته وعلاقاته بالمحيط الذي يعيش فيه. فلا تعود يده تبتطش وتُلحق الأذى بالآخرين، ولا رجله تمشي به إلى ارتكاب الجرائم والموبقات، لأنّها تتذكّر قدرة الله الخالق على الحساب. ولا لسانه يُفسد بالفتنة والنميمة وقول الزور وما سوى ذلك، لأنّه يتذكّر أنّ كل كلمة ينطق بها الإنسان تُحصى عليه، ويُسأل عنها يوم الحساب. ولا قلبه يعود ينبض بالحدّ أو الكراهية أو الحسد أو كل تلك المعاني السلبية التي يصغي فيها المرء إلى نداء الشيطان، لأنّه يدرك أنّه على موعد مع الله والحساب.

إنّ قيام الإنسان بهذا المقصد العظيم على الوجه الذي أراده الله تعالى يكفيه للفوز برضا الله في الآخرة،

وتحقيق سعادته مع أخيه الإنسان في الدنيا، لذلك من الأهمية بمكان أن يشعر الإنسان بالعبودية لله وحده، حتى يشعر بإنسانيته تجاه أخيه الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

الإعمار

المقصد الآخر من مقاصد القيام بالخلافة هو إعمار الأرض. فالله تعالى أخرجنا من هذه الأرض واستعمرنا فيها لنقوم بهذا الدور وهذه الوظيفة. قال تعالى: ﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ الْعِبَادُ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (١).

١ - هود؛ ٦١.

ولفظة استعمركم مشتقة من العمر، والعمر والعمر
والعمر لغة هو : الحياة. وعمر الرجل : أي عاش زمناً
طويلاً. وجعل الله البيت بك عامراً : أي أهلاً. والعمارة
: ما يُعمر به المكان. واستعمركم فيها : أي أذن لكم في
عمارتها، واستخراج قوتكم منها، وجعلكم عمّارها (١).

واستعمركم فيها : أي جعلكم عمّاراً تعمرونها
وتستغلونها (٢). وقال ابن العربي : استعمركم فيها : أي

١ - ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٥٦.

خلقكم لعمارتهأ، والمفهوم من الآفة أئها سبقت مساق
الامتتان (١).

وقد أضفى عصرنا الحالي على كلمة العمران معنى
التكاثر البناني أو المءني، فنقول عن امتداد المدن
باتجاه ضواحيها، التمدء العمراني.

والإعمار لا يكون بالبناء والتشييد والتناول بالبنيان
فحسب. بل كل ما يمكن أن يخدم البشرية ويسهل عليها
ويحفظها هو من الإعمار.

وكما قيل فائءه بالأضداد تتمايز الأشكال أو
الأشياء، فإنّ ضد الإعمار الهدم، ومن الهدم ليس فقط

١ - الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج ٢، ص

هدم الأبنية، إنّما كل نوع من أنواع القضاء على
 استمرار الحياة الطبيعية، وبالتالي فإنّ أبلغ تعبير عن
 ذلك جاء في وصف حديث الملائكة عن خلافة الإنسان
 في الأرض، عندما ذكّرت مسألتي الفساد وسفك الدماء.
 فهما من أبشع وأشنع مظاهر الإخلال بالحياة الطبيعية،
 وبالتالي الهدم الذي يمنع عمارة الأرض. قال الله تعالى
 في ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
 الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

والهدم لا يكون فقط بهدم البنيان من خلال الحروب والمشكلات والعداوان الذي يمكن أن يشنّه أيّ إنسان أو مجتمع نحو إنسان أو مجتمع آخر، فهذا لا جدال فيه. ولكن يكون أيضاً من خلال هدم القيم، وهي أعظم من هدم البنيان، لأنّ هدم القيم يقود ويفضي بالإنسان إلى هدم البنيان العمران. ولأنّ القيم تشكّل الضابط الذي يحفظ الإنسان من الإنزلاق إلى المهايوي. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١). والآية الكريمة التي حدّرت من إشاعة الفاحشة، جاءت بعد الآيات التي

١ - النور ؛ ١٩.

تحدثت عن حادثة الإفك التي طالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بهتاناً وأثماً، وفيها تأديب لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه فتكلم به، فلا يكثر منه وينشره ويذيعه^(١). فإشاعة الفاحشة فيه هدم لقيمة بل لقيم كبيرة وكثيرة تفتح الباب أمام ارتكاب الجرائم الهدامة التي تفتك بكل العمران، وفي ذلك أذى للآخرين، وهدم للقيم التي تحفظ المجتمع.

إنَّ أخطر آفة تعاني منها الكثير من المجتمعات اليوم هي آفة تراجع القيم الضابطة لسلوك الناس والمجتمع، وإطلاق العنان للغرائز والأطماع المنفلتة من كل عقل أو ضابط، والتي تفتك بالبشرية تارة من خلال الأطماع التي تدفع إلى الحروب والخصومات والعدوان،

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جزء ٥، ص ٥١٠.

وتارة من خلال منظومات الفساد التي تتحكّم بالكثير من
مفاصل إدارات الدول والمجتمعات، وتشكّل الأداة الأولى
في هدمها.

لقد جعل الله عقوبة الذين يهدمون ويعرقلون
استمرار الحياة الطبيعية، ويمنعون عمارة الأرض بما
يُسعد الإنسان، فأعلن الحرب عليهم ووصفهم بأشنع
الأوصاف ووصف فعلهم بالحرب على الله ورسوله. قال
الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ
ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۗ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿١﴾. فهؤلاء محاربون لله ورسوله، وعقوبتهم القتل والصلب والتقطيع والنفي والخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة، لأنّ هؤلاء يعترضون مسار الحياة الطبيعية للأرض ومن عليها، فيلحقون الضرر بكل من عليها، ويتحملون أثم ما يقترفون. هؤلاء ببساطة يعطلون الدور والوظيفة المنوطة بالإنسان المكرّم والمكلف عند الله، وأمّا الحديث عن شرح هذه الأحكام بشيء من التفصيل فيأتي في سياق آخر.

وعندما يظهر لنا حجم العقوبة التي قرّرها الله على أولئك الذين يسعون في الأرض فساداً وخراباً، ندرك في المقابل أيضاً حجم التشديد والحثّ على العمل والمراكمة في إطار وظيفة إعمار الأرض.

١ - المائدة ؛ ٣٣.

فالمسلم مطالب بمواصلة العمل والإنتاج والإعمار في أخطر وأصعب ظروفه وأوقاته حتى لو كان على مشارف قيام الساعة وانتهاء الحياة في الأرض، وقد طلب رسول الله (ﷺ) من المسلمين هذا الطلب، فقال (ﷺ) : ((إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها))^(١). والفسيلة هي النبتة، وهي دعوة صريحة وواضحة على استمرار العمل والإنتاج وعدم الانقطاع، حتى آخر لحظة، ليس من حياة الإنسان كفره، إنما من حياة الكون، لأنّ القيامة هي النهاية.

١ - ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ)، الأدب المفرد، القاهرة، المطبعة السلفية، ط ١٣٧٥ هـ، باب اصطناع المال، ص ١٢٦.

لم تقف مسألة الحث على العمل عند هذه الدعوة،
إنّما هذه تكشف لنا أهمية وضرورة العمل حتى في
أصعب وأعقد الظروف ولو كانت آخر لحظة من الحياة
كلّها. غير أنّ الآيات التي ذكرت العمل وحثّت عليه
كثيرة جداً في القرآن الكريم، وكذلك الأحاديث النبويّة
الشريفة التي دعت إلى العمل المتواصل والنهوض
المستمر كجزء من واجب إعمار الأرض. قال رسول الله
(ﷺ) : ((ما من مسلمٍ يغرسُ غرساً أو يزرعُ زرعاً فيأكلُ
منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلاّ كان له به صدقة))^(١).

١ - صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع
والغرس، ص ٥٥٨. وصحيح مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة،
باب فضل الغرس والزرع، ص ٧٢٨ .

وفي إطار التشجيع على إعمار الأرض، روت
السيدة عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله (ﷺ) قال:
((من أحيا أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها))، وفي
رواية ((من أعمار أرضاً ليست لأحد فهو أحق)) (١).
قال عروة: قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته.
ثم جاءت التنظيمات والتشريعات التي تضبط هذه
المسألة بعد التمدد العمراني والسكاني واختلاف طبيعة
الحياة، حتى لا تتحول في لحظة من اللحظات إلى نوع
من الصراعات الدموية التي تدخل في إطار سفك الدماء
والهدم.

١ - صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضاً، ص
٥٦٢.

وفي موازة الحثّ على الغرس والزراعة كنوع من أنواع الإعمار، دعا الإسلام إلى الحفاظ على البيئة وعدم تلويثها، لأنّ تلويثها يعدّ من أكبر المخاطر التي تتهدّد عملية إعمار الأرض، واليوم تُعدّ مسألة الحفاظ على البيئة من المسائل الأساسية التي يهتم بها العالم الجديد، ويعقد لأجلها المؤتمرات العالمية، ويتخذ الإجراءات التي تحدّ من مخاطر العدوان على البيئة. كما هناك المنظمات والمؤسسات الدولية والمحلية والمتطوّعة للدفاع عن البيئة كأحد المخاطر التي تهدّد سلامة الأرض. وقد كان رسول الله (ﷺ) يوصي أصحابه وقادة جيشه وجنده عند أيّة غزوة أن لا يقطعوا شجرة إلاّ لحاجة.

وفي معرض الحديث عن البيئة فقد رفض الإسلام أن يلحق الإنسان الضرر بأخيه الإنسان أو حتى

بالحيوان أو بالبيئة، وبأي شكل من الأشكال. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله (ﷺ) قال: ((لا ضرر ولا ضرار))^(١). ويبين الحديث أن المكلف منهي عن كل فعل يترتب عليه إضرار الآخرين، سواء قصد صاحبه الإضرار أم لم يقصد ذلك.

وفي معرض حماية الطبيعة والحيوان من أي أذى، أو من الإضرار، روى عمرو بن الشريد، قال سمعت الشريد يقول: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((من قتل عصفوراً عبثاً عَجَّ (رفع صوته) إلى الله عز وجل يوم

١ - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العلمية، ج ٢، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقّه ما يضرّ بجاره، ص ٧٨٤.

القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني
لمنفعة))^(١). وبالطبع فإن حماية الحيوان من القتل
العبث، فيه حماية للبيئة واستمرار الحياة الطبيعية في
الأرض، وبالتالي هو من أنواع الإعمار. وفي عصرنا
الحاضر هناك الكثير من المنظمات والجمعيات التي
تُعنى بالحفاظ على الحيوانات من الانقراض والزوال،
كما هناك الكثير من التشريعات في العديد من الدول
التي وضعت قوانين للحفاظ على الحيوان وعدم التقريط
به إلا في حدود الحفاظ على دور ووظيفة الإنسان في
الأرض على اعتبار أنه الخليفة المكلف، وقد سخر
مالك الكون له كلّ ما يحيط به من أجل القيام بهذه

١ - النسائي، سنن النسائي، كتاب الضحايا، باب من قتل
عصفوراً بغير حقّها، ص ١٧٠.

الوظيفة وهذا الدور، وفي ذلك حفاظ على نفسه وعلى غيره من المخلوقات التي سُخِّرَتْ له.

والإعمار يكون على أنواع كثيرة ومتعددة قد لا يمكن حصرها وعدّها، لكنها تبقى معنيّة بما يوفر استمرار الحياة الطبيعية في الأرض، وبما يُسعد الإنسان، ومن هذه الأنواع.

الاهتمام بالإنسان وتطوير كفاءته وخبراته من ناحية، وسلوكه من ناحية ثانية بما يجعله يدير عملية تمكين الله له في الأرض على نحو سليم ومرضي ومنسجم مع مقاصد الخلافة، علمياً وقيماً وفي كافة النواحي. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

فالتمكن يقتضي معرفة إدارة المقدرات والمُسَخَّرَاتِ الموضوعية تحت يد المُتَمَكِّنِ أو المُمَكِّنِ. وهذا يحتاج إلى تطوير في الكفاءات والخبرات العلمية والمعرفية من ناحية، ويقتضي أيضاً تهذيباً للسلوك والنفوس من ناحية أخرى، إذ أن أيّ خلل يصيب هذه المعادلة قد يخرج الإنسان عن المقصد الذي وجد لإجله، وبالتالي التصرف بما يؤدي المحيطين به.

لقد وفر الله للإنسان الوسائل كافة للقيام بوظيفة إعمار الأرض، فالأرض وما فيها وما عليها مُسَخَّرٌ للإنسان، والسماء وما فيها مُسَخَّرٌ للإنسان، وبالتالي فهو يحتاج إلى العقل الذي يدرك ذلك ويديره بما يحقق

١ - الأعراف ؛ ١٠.

المقصد، وقد ضرب الله مثلاً على ذلك النبي يوسف الذي أدرك وأدار مرحلة مهمة كانت تُعتبر من أخطر المراحل التي كانت يمكن أن تهدد بالجوع. قال تعالى :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ^(١). وإلى القلب الصافي، أو النفس المؤمنة التي ترفض الجنوح بهذه المقدرات نحو الإضرار. وعليه فإنّ الإنسان، جسداً وعقلاً وروحاً، بحاجة دائمة إلى التطوير مواكبة لحركة الكون ومستجداتها للقيام بواجب الإعمار، وإلاّ فإنّ جموده سيجلعه متخلفاً عن إدارة ما هو تحت يده، فهو المحور الأساسي في عملية الإعمار على المستويين العلمي والنفسي.

١ - يوسف ؛ ٤٧.

ثم إن من الأمور والقضايا المهمة في عملية إعمار الأرض تأتي مسألة التشريعات التي يمكن أن تكون على هيئة قوانين أو على هيئة مبادئ أخلاقية، تحثّ وتحضّ من ناحية على القيام بواجب الإعمار في مختلف القطاعات والنواحي. وتحمي الأرض من المهلكات التي يمكن أن تتسبب بخرابها ودمارها والإضرار ببني الإنسان. ومنذ آدم (عليه السلام) مروراً بكل الأمم والشعوب والأنبياء الذين قضوا، كان هناك تشريعات تناولت جوانب كثيرة من حياة الناس أو حتى قضايا الحياة، والتي كان الهدف منها الإسهام في عملية الإعمار من خلال دورة متكاملة من العناصر التي تساعد على القيام بالوظيفة والدور، وهنا يأتي الحديث في كل التشريعات، أو الشرائع، التي سبقت رسالة سيّدنا محمد (ﷺ)، عن عقوبات أو تكاليفات أو توصيات هدفها

تحقيق المقصد. وكذلك جاءت رسالة سيّدنا محمد (ﷺ) تستكمل هذه التشريعات، وتهذّب بعضها وتضيف غيرها بما يحقق المقصد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم إنّ من الوسائل التي يتمّ بها إعمار الأرض الزراعة، فهي تشكل المورد الأساسي لطعام وشراب الإنسان، وحتى الحيوان، وقد شجّع الرسول (ﷺ) على الزراعة والغرس كما مرّ سابقاً في بعض الأحاديث.

إنّ العالم اليوم بات بحاجة ماسّة إلى تطوير موارده على المستويات كافة من أجل تأمين استمرار الحياة الطبيعية، ولذلك فهو بحاجة إلى تطوير عملية الغرس والإنتاج أمام تطوّر وازدياد عدد السكان، وبالتالي فإن الموارد الزراعية الطبيعية التي كانت قائمة ومتوفرة في زمن آدم (عليه السلام) لا تكفي لو ظلّت على هيئتها لسكان

الأرض اليوم، فكان لا بدّ من الزراعات التي توفّر الحاجات الأساسية من غذا وطعام لسكّان الأرض، وهذا بدوره بحاجة إلى إيجاد مساحات زراعية، وإلى توسيع المساحات المزروعة وتنويعها، وإلى استثمار الإمكانيات المتوفرة في عملية إنتاج الحاصيل الزراعية بالأكلاف القليلة. إنّ الزراعة تُعدّ وتُعتبر من أبرز وأهم وسائل إعمار الإنسان للأرض.

ثمّ إنّ الصناعة أيضاً من الوسائل التي تسهم بشكل كبير في عملية الإعمار واستمرار الحياة الطبيعية في الأرض. لقد لعبت الصناعة دوراً بارزاً ومهماً في تطوير المجالات الأخرى كافة، وأسهمت بشكل كبير في عملية البناء والتطوير وتوفير الطاقات والجهود وحتى الأموال والموارد، فضلاً عن أنّها نقلت الإنسان من حالة إلى

حالة أخرى على مستوى الراحة وتأمين المستلزمات الحياتية.

لقد كان للتطور الصناعي الأثر الكبير في إحداث نقلة نوعية في التطوير الزراعي، والتخفيف من أعباء الإنتاج، بل وزيادته، وصار بإمكان جرار زراعي واحد القيام بأعباء ما كان يقوم به فلاح مع محراثه وثورته بوقت قياسي. فضلاً عن الأمور الأخرى المتصلة بهذا الجانب. وقد خفف هذا الأمر الكثير من الأعباء عن الناس، وأحدث نقلة نوعية في تعاملاتهم الزراعية.

كما كان للتطور الصناعي دور كبير في مجمل حياة الإنسان على المستويات كافة. فصناعة الطائرات وقرت على الإنسان الطاقة والجهد وجعلته ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة قياسية. وكذلك السيارات

والقطارات والسفن وغيره قد أحدثت نقلة نوعية قياسية في حركة المواصلات وما يتصل بها.

والصناعات الأخرى المتصلة بمجمل الأمور جعلت الإنسان يتوسّع في حركة البنيان والتشييد العمراني وبسرعة قياسية أيضاً. وعلى ذلك يمكن أن نقيس مجمل الأمور المتصلة بالتطوّر الصناعي الذي أحدث ثورة حقيقة في عالم الإعمار والتقدّم.

كما وأنّ الاختراعات العلمية والكهربائية أو الإلكترونية تقع أيضاً في صلب إعمار الأرض، إذ أنّ اكتشاف الكهرباء والطاقة وفرّ الكثير من الجهد على الإنسان في مجال الاستخدامات اليدوية، ونقله إلى عالم تتسارع فيه الخطوات بتسارع الكهرباء. كما وأنّ الاختراعات الإلكترونية التي توصلّ لها العالم في وقت

متأخر أحدثت ثورة حقيقة في عالم التكنولوجيا والرقميات، وصار بإمكان الفرد الواحد أن يقوم بأعمال كان يعجز عن القيام بها مجموعة كبيرة من الناس. فضلاً عن توفير الجهود والطاقات والأوقات وما سوى ذلك. وطبعاً هذا يقع في صلب عملية إعمار الأرض وإسعاد الإنسان.

غير أنّ هذا التطور الصناعي و"التكنولوجي" لا بدّ له من ضوابط معيّنة حتى لا يخرج عن مقصده ويتحوّل من وسيلة إعمار إلى وسيلة هدم وتدمير.

إنّ الصناعة التي تكون وسيلة من وسائل الإعمار هي تلك التي تصبّ في صالح الإنسان وإسعاده وتوفّر عليه الطاقة والجهد والمال. قال تعالى حكاية عن ذلك في قصة النبيّ داود (عليه السلام) : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ

لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿١﴾

(١). أمّا الصناعة التي تدمّر الإنسان وتلحق الضرر به كصناعة المتفجرات والصواريخ وغيرها مما يمكن أن يكون استخدامه سلبياً، فتلك عندما تُستخدم بشكل سلبي لا تكون من وسائل الإعمار، بل من وسائل الهدم. وأمّا صناعة أسلحة الدمار الشامل من الأسلحة الجرثومية أو الكيميائية أو النووية أو الذرية فتلك من الأسلحة التي يمكن أن تدمّر الإنسان وحتى الأرض، فهذه ليست من وسائل الإعمار إنما من وسائل الهدم والدمار، وهذا ينطبق على أي اختراع أو تطوير لأية وسيلة من الوسائل.

وربطاً بالموضوع الصناعي فإن استخراج المواد الخام من باطن الأرض وتطويرها واستثمارها في مجالات الحياة المختلفة والإيجابية يُعدّ من الإعمار، إذ أنّ هذه المواد الخام كالنفط أو الذهب أو غيرها ما استخدمت في الكثير من الاستخدامات التي طوّرت حياة الناس وخفّفت من أعبائهم.

وربطاً بالموضوع الصناعي والتكنولوجي أيضاً، فإنّ الابتكارات الألكترونية الحديثة التي مكّنت الإنسان من التواصل الرقمي عبر أنظمة خاصة قرّبت المسافات وحوّلت الكرة الأرضية إلى ما يشبه القرية الصغيرة، وهذا أيضاً يقع في صلب عملية الإعمار، إلّا أنّه يظلّ بحاجة إلى ضوابط تُعنى بالجانب السلوكي الذي لا يحوّل الإنسان إلى مخلوق مادي أو مجرد من القيم والأخلاق.

ومن الوسائل التي تسهم في عملية الإعمار،
التجارة على أنواعها.

فالتجارة تسهم في نقل الانتاج الزراعي أو الصناعي
أو حتى التكنولوجي من ناحية من نواحي الأرض إلى
ناحية أخرى، وهذا يخفف على الناس، ويجعل السلع
التي يحتاجونها في حياتهم اليومية، سواء كانت غذائية
أو صحية أو تربية تعليمية أو غيرها في متناول
أيديهم، وبالتالي فهذا يخفف من الأعباء عنهم.

وقد حثّ الإسلام على التجارة واعتبرها من الكسب
الطيب، فروى رفاعه بن رافع رضي الله عنه أن رسول

الله (ﷺ) سُئِلَ: أي الكسب أطيب؟ فقال: ((عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور))^(١).

كما وأنَّ النبيَّ (ﷺ) عمل في التجارة مع خديجة رضي الله عنها، وكان مثلاً للتاجر الصادق الصدوق. كما كان لقريش قبل بعثة النبيَّ (ﷺ) رحلتان تجاريتان صيفاً وشتاءً إلى الشام واليمن.

ومن خلال التجارة يحصل التعارف، والتكامل، والنهوض، وتبَيَّنَ الناس حاجات بعضها، ويحصل الانفتاح على الاخلاق والسلوكيات وحتى الأفكار والعقائد، وقد وصل الإسلام إلى ربوع كثيرة في هذا

١ - رواه البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، باب التوكل بالله والتسليم لأمره، ج ٢، ص ٤٣٦.

العالم من خلال التجارة والتجّار الذين كانوا يعكسون أفضل وأنقى صورة.

والتجارة تكون بين الناس كأفراد، عندما يتبادل الأفراد ما لديهم من مواد زراعية أو صناعية أو غيرها بحسب حاجة كل فرد إلى حاجته. والمجتمعات الأولى كانت تتمّ فيها العمليات على هذه الطريقة بحيث يستبدل الشخص على سبيل المثال ما لديه من بيض بما لدى غيره من تمر أو زبيب أو غيره، وهكذا. ثم تطوّر العمل التجاري بعد اكتشاف النقود المعدنية الذهبية أو الفضيّة التي صارت هي العملة الموحدة، ثمّ بعد ذلك العملة الورقية.

وتكون التجارة بين الشركات والمؤسسات، بحيث تبتاع هذه الشركات من بعضها إنتاجها، بحيث يمكن أن

تتبع إحداها لأخرى المواد الخام مثلاً، ثم تشتري منها المنتج الصناعي أو الزراعي أو غيره. وهناك اتفاقات معقودة بين الكثير من الشركات في مجال تطوير وتسهيل العمل التجاري وتبادل المصالح.

وتكون التجارة أيضاً بين الدول، خاصة تلك التي تتحكّم بشكل كامل بمفاصل الاقتصاد في مجتمعاتها، ولا تدع العمل التجاري للسوق. وقد كانت هذه الطريقة معروفة وقائمة في الدول التي كانت تعتمد النظام الاشتراكي الذي يعتبر أنّ كل ما في النطاق الجغرافي للدولة هو ملك للدولة وليس للأفراد، فالفرد في ظلّ هذا النظام لا يحقّ له أن يملك. هذه الدول التي تعتمد النظام الاشتراكي الكامل تحتكر التجارة لصالحها فتعقد الصفقات التجارية إمّا مع دول مثلها، وإما مع شركات أو حتى أفراد.

غير أنّ الإسلام حتى لا تكون التجارة معوّقاً في
عملية التنمية والإعمار، رفض الاحتكار، فقال رسول
الله (ﷺ) : ((لا يحتكر إلا خاطئ))^(١). وحتى رفض
التدّخل في عملية التسعير إلا في حدود ضيقة جداً.
فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال غلا السعر
على عهد رسول الله (ﷺ). فقالوا: يا رسول الله، قد غلا
السعر. فسعّر لنا. فقال: ((إن الله هو المسعر القابض
الباسط الرازق، إني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد
يطلبني بمظلمة في دم ولا مال))^(٢).

١ - صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في
الأقوات، ص ٧٥٤.

٢ - أبو عيسى الترمذي، الجامع الكبير، المجلد الثاني، أبواب
البيوع، باب ما جاء في التسعير، ص ٥٨٢. وأبو داود، سنن

واليوم هناك منظمات تجارية دولية مختصة بأنواع معينة من التجارة، كتلك المختصة بالنفط، أو المواد الغذائية، و أو الطبية وغيرها، وبعض هذه المنظمات تعمل على تنظيم عمل السوق، بينما قد تمارس غيرها عملية الاحتكار أو التحكم بالأسعار من أجل جني الأرباح والأموال الطائلة ولو على حساب الناس الفقيرة والمعدمة.

إنّ التجارة من الوسائل المهمّة في عملية إعمار الأرض وإسعاد الإنسان إذا ظلّت محكومة للقيم التي تسهم وتساعد على عملية البناء والتطوير والإعمار،

ابي داود، ج ٥، كتاب البيوع، باب في التسعير، ص ٣٢٢.
وابن ماجة، ج ٢، كتاب التجارة، باب من كره أن يسعر، ص ٧٤١.

غير أنّها قد تتحوّل أمام الجشع والطمع إلى وسيلة هدم تقوّض قدرات الأفراد والمؤسسات وحتى الدول. وها نحن في العصر الحديث، عندما بدأ العالم يتجرّد من القيم رأينا كيف بدأت تدور الحروب التجارية والاقتصادية بين الدول والمجموعات الكبيرة من أجل تحقيق أطماع أو أرباح على حساب مجتمعات أخرى، ومن دون أي رادع من حسّ أو ضمير. رأينا في الفترة الأخيرة كيف تدور المعارك الاقتصادية بين الدول الكبرى كالصين والولايات المتحدة الأمريكية دونما أي اعتبار لمصالح المجتمعات الأخرى على سطح الكوكب. وقد دفع ذلك إلى ابتكار وسائل وأساليب جديدة في المواجهة وصلت أحياناً إلى حدود الاتهام باستخدام وسائل محرّمة، حتى في شرائع البشر، كما حصل في الشهور الأولى من سنة ٢٠٢٠ عندما اتهمت الولايات المتحدة الأمريكية الصين

بالوقوف خلف إنتاج فيروس Covid - 19 (كورونا) الذي أقلق العالم وحجر الناس في منازلها في معظم دول العالم وألحق اضراراً فادحة على المستوى الاقتصادي باقتصادات معظم الدول.

وفضلاً عن التجارة بين البشر، هناك التجارة مع الله، تلك التي يقدم فيها المرء ماله أو بعضاً منه صدقة للفقراء والمحتاجين قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۗ تُوْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۗ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) . أو يقدم نفسه تضحية من أجل معنى سام. أو يقدم شيئاً

١ - الصف ؛ ١٠ - ١١.

عزيزاً عليه ابتغاء رضا الله. تلك التجارة لا تبور، وهي
أعظم وسيلة إعمار في هذه الأرض.

خلاصة القول لحديثنا عن وظيفة ومقصد الإعمار
أنه العمل الذي يصبّ في صالح البشرية جمعاء، ويقدم
لها المنافع، ويخفف عنها الأعباء والمشقات، ويضمن
عملية استمرار الحياة الطبيعية المطمئنة على الأرض.

إنّ تحقيق هذا المقصد يحتاج إلى فهم عميق
لطبيعة دور ووظيفة الإنسان في هذه الأرض. وإلى
عمل دؤوب مستمر ومتواصل في كل قطاع من
القطاعات التي تتصل بحياة الناس، مع التطوير الدائم
لهذه القطاعات حتى تلبي احتياجات الناس بحسب
ظروف كل وقت وزمن ومكان. وإلى تعاون وتكامل بين
الجميع حتى يقوم كل فرد أو طرف بما عليه وضمن

اختصاصه للنهوض بموجبات الخلافة ومقصدها
المتعلق بالإعمار.

إقامة العدل

المقصد الثالث من مقاصد القيام بالخلافة في الأرض هو إقامة العدل بين الناس. وهذه المقاصد الثلاثة تشبه أضلاع المثلث، بحيث إذا فُقد عضو فُقد المثلث اعتبره.

إنّ عبادة الله تسهّل الطريق أمام القيام بالوظيفة الثانية وهي الإعمار، لأنّ ارتباط المرء بالخالق عن طريق العبادات المتعدّدة يجعله دائماً في محل رقابة ذاتية تدفعه إلى القيام بدوره ووظيفته وواجباته في عملية الإعمار.

وإنّ القيام بالإعمار يحتاج لضمان حسن سيره
أيضاً، فضلاً عن الوازع الداخلي الذي تملّيه العبادات،
يحتاج إلى رقابة خارجية تتمثل بإقامة العدل بين الناس.
ومن هنا أرى ترابطاً عضوياً بينها، لا سيّما الإعمار
والعبادة، والإعمار وإقامة العدل.

وقد بيّن الله تعالى لنا في القرآن الكريم المقصد
الثالث في ضرورة إقامة العدل، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^ط وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾.

والقسط لغة : هو العدل (٢).

وليقوم الناس : القيام ضد الجلوس. وقام: بمعنى
عزم. وقائماً : أي مواظباً وملازماً، والاستقامة :
الاعتدال. (٣).

وفي تفسير قوله تعالى "ليقوم الناس بالقسط" قال
ابن كثير: أي بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما

١ - الحديد ؛ ٢٥.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ١٦١.

٣ - ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٣٥٥ - ٣٦٠.

أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإنّ الذي جاؤوا به هو الحقّ الذي ليس وراءه حقّ (١).

وبيّنت الآية الكريمة أنّ الله أرسل الرسل بالبيّنات والحجج والقواطع والمعجزات، وأنزل معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية، وأنزل القانون الذي يُحكم فيه بين الناس، وكلّ ذلك من أجل أن يقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم بينهم (٢).

فالمسألة تتعلق بضمان حقوق الناس في معاملاتها، وضمان حقوقها أمام غيرها كالسلطات والمؤسسات وأي

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، ج ٧، ص ١٨٨.

٢ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، المجلد الثالث، ص ٣٢٩.

شيء آخر، وحتى يشعر كل إنسان أنه قوي حتى يأخذ حقه.

والعدل بمعنى إن يُعطى كل ذي حق حقه أمر من الله تعالى، من يقوم به ويؤدّي ما عليه يكون قد أبرأ ذمته عند الله، ومن يتجاهل العدل ويحيد عنه، ويتجاوز على حقوق الغير، فإنه سيجد عقابه عند الله. قال تعالى

: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١). فإداء الأمانات إلى أهلها من العدل والقسط، وكذلك إذا حكم المرء بين الناس أن ينصف بالبيّنة والدليل أصحاب

١ - النساء ؛ ٥٨.

الحقوق، فيعطي كل ذي حقّ حقه. وسيأتي معنا أصناف وأنواع العدل المطلوبة.

والعدل هو الاستقامة، وهو نقيض الظلم والجور والعدوان. وربّنا تبارك وتعالى حرّم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرّماً. فقد روى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلّم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلّم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم

...))^(١). وأعلن ربنا تعالى أنه لا يحب الظالمين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٢). بل أعلن أيضاً أنه لا عدوان إلا على الظالمين لرد ظلمهم واعتدائهم وعدوانهم. قال تعالى: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۗ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣). وبيّن أنّ جزاء الظالمين هو جهنّم

١ - صحيح مسلم، كتاب البرّ والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، ص ١١٩٨.

٢ - آل عمران؛ ٥٧.

٣ - البقرة؛ ١٩٣.

وبئس المهاد. قال تعالى : ﴿ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

وفي مقابل ذلك فقد جعل الله لمن يعدل في الحياة الدنيا أجراً عظيماً، خاصة إذا كان في موقع يحتاج الناس فيه إلى عدله. قال رسول الله (ﷺ) : ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ

١ - الأعراف ؛ ٤١ .

عَيْنَاهُ))^(١). فالإمام العادل الذي يكون على رأس رعيته يرباهم بالعدل والرحمة والشفقة وإنصاف كل صاحب حق، هو في مقام كريم عند الله يوم القيامة، إذ أنه في ظلّ الله تعالى يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه.

والعدل مختلف عن المساواة. إذ أنّ العدل هو أن يُعطى كلّ ذي حقّ حقّه، بينما المساواة هي أن يماثل الشيءُ غيره. فتقول : سوى الشيء: أي مثله. وسأوى الشيءُ الشيءَ إذا عادله^(٢). وقال تعالى : ﴿أَتُونِي

١ - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ص ٣٤٦. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ص ٤٥٧.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١﴾ .
وقوله ساوى بين الصدفين: أي "وضع بعضه على
بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين
طولاً وعرضاً واختلفوا في مساحة عرضه وطوله" (٢).

يتضح من خلال الشرح أن العدل مختلف كل
الاختلاف عن المساواة، لذا اقتضى التوضيح حتى لا
يظنَّ أحدٌ أنّ العدل يكون بالمساواة بين الناس أو
الأشياء أو غيرها.

١ - الكهف ؛ ٩٦ .

٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥ ، ص ١٩٤ .

والعدل لا ينبغي أن يتأثر بالعواطف تحت أي ظرف من الظروف، لأنّ تأثره بالعواطف يُلحق الظلم بأصحاب الحقوق. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قريشاً أهمهم شأنُ المرأةِ المخزومية التي سرقت. فقالوا: من يكلم فيها رسول الله (ﷺ)؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامةُ بن زيد حب رسول الله (ﷺ)؟ فكلمه أسامةُ؛ فقال رسول الله (ﷺ): ((أتشفع في حد من حدودِ الله تعالى؟!)) ثم قام فاخطب ثم قال: ((إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهمُ الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ! وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعْتُ يدها)) (١).

١ - صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، ص ١٦٨٠. صحيح مسلم، كتاب الحدود،

وكذلك لا ينبغي أن يخضع للحبِّ والكره. قال تعالى
 : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ
 بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ۗ
 اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ اِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

فالآية الكريمة أشارت إلى أن بُغْضَ أو عداوة قوم
 (شَنَاٰن) لا ينبغي أن تحمل (يجرمكم) أو تدفع إلى عدم

باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود،
 ص ٨٠٥.

١ - المائة ؛ ٨.

القيام بوظيفة العدل^(١)، بل يمكن أن يكون العدل في مثل هذه المواضع أوجب لما فيه من اختبار لإيمان الإنسان وتجردّه.

والعدل قد يكون عملاً فردياً يقوم به أي شخص في إطار مسؤوليته ووظيفته الفردية، وهنا تجب الإشارة إلى أنّ كلّ فرد من الناس مطالب بأن يكون عادلاً مع المحيط الذي يتحرك فيه ويتعامل معه، بغض النظر عمّا يمكن أن يحويه هذا المحيط. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) قال: ((أَلَا كُلكُمْ رَاعٍ، وَكُلكُمْ مَسئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ

١ - الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ)، النكت والعيون تفسير

الماوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، المجلد الثاني، ص ٨.

بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا
وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ
وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنِ
رَعِيَّتِهِ ((^(١)).

لقد بيّن هذا الحديث أنّ الأمير مسؤول عن رعيته
ومطالب بإقامة العدل فيهم ضماناً لحقوقهم، وتأميناً
لمصالحهم. والرجل مسؤول عن بيته وأسرته ومطالب
بأن يكون عادلاً معهم وبينهم، وحامياً لهم. والمرأة
مسؤولة عن مال زوجها وبيته، فلا تبغثر ماله دون وجه
حق، ولا تدخل إلى بيته من لا يرغب، وتدير أسرته

١ - صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى
والمدن، ج ١، ص ٢١٧. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب
فضيلة الإمام العادل، ص ٨٨٦.

تربية وتعليماً واهتماماً بكامل مسؤوليتها وهي عادلة غير مقصرة في كل شيء من ذلك. والراعي الذي يراعى الغنم، أو العامل الذي يؤدي عملاً أيما كان هذا العمل، أو الأجير الذي يعمل في أي مهنة أو خدمة، أو صاحب الحرفة الذي يؤتمن على إنجاز بعض الأعمال (نجارة، حدادة، الخ ..) فهو مسؤول في نطاق عمله عنه، ويؤديه بإتقان ومسؤولية حتى لا يلحق به أو بصاحبه أيّ ضرر. والطالب مسؤول عن اجتهاده وتعلّمه حتى يحقق النجاح والفوز لأنّ والده ينفق عليه من ماله وعرق جبينه. والموظف في إطار وظيفته يؤدي وظيفته على أكمل ما يكون لأنّه يتقاضى بدلاً مالياً عنها، وربّ العمل ينبغي أن يراعى موظفيه بالعدل بحيث يعطيهم ما يستحقون من الأجر المالي، ولا يماطل بهم أو يكلفهم فوق طاقتهم دون مقابل، وهكذا

هي دورة كاملة. بمعنى آخر، إنّ كلّ واحد من هؤلاء الذين ذكرهم الحديث مسؤول ومؤتمن على من هم تحت يده، ويجب أن يراهم بالعدل والإنصاف والقسط. وهنا تتبدى المسؤولية الفردية في إقامة العدل في النطاق المنوط بالفرد. وهذا بالتأكيد يولد نوعاً من الاطمئنان والثقة بين الناس وفي المجتمع، ويقال من حجم المشكلات والمصائب والأحقاد بينهم.

وكما يكون العدل مسؤولية فردية، فهو أيضاً مسؤولية جماعية تقع على عاتق جميع أبناء المجتمع، ولعلّ ذلك يتبدى ويظهر بوضوح في التشريعات والقوانين التي يسنّها المخولون بهذا العمل (مجلس النواب أو أهل الحل والعقد). وهنا تقع المسؤولية على هؤلاء في سنّ قوانين يتكافأ بها المواطنون، وتحفظ حقوق كل منهم، بحيث لا يكون فيها أيّ نوع من أنواع

التمييز العنصري أو الفئوي أو الطبقي أو الخلقي أو غيره. قال رسول الله (ﷺ) : ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة))^(١). وهنا إشارة إلى عدم التمييز على أساس الدين في القضايا المتصلة بالواجبات والحقوق.

إنّ بعض الأنظمة السياسية عبر التاريخ كانت تعتمد تشريعات وقوانين تميّز فيها بين مواطن وآخر، وبين فرد وآخر من أبناء المجتمع الواحد على خلفية دينية أو عرقية أو سياسية أو مذهبية أو أي شيء آخر،

١ - رواه أبو داود، سنن أبي داود، جز ٤، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب تعشير أهل الدمة إذا اختلفوا بالتجارات، ص ٦٥٨،

بحيث تمنح البعض حقوقاً وتحجبها عن آخرين في وقت
يجب أن يتساوى فيها هؤلاء وأولئك. كمسألة الاستشفاء
أو الدخول إلى المطاعم أو صالات السينما أو الأماكن
العامة أو ركوب الباصات أو الطائرات أو غيرها، أو
ربما تحرم بعضهم من بعض الحقوق السياسية مع أنّها
تفرض عليهم ضرائب وواجبات متساوية تماماً مع غيرهم
من المواطنين. وهنا يبرز التمييز ويبرز حجم الظلم
الذي يلحق بهؤلاء.

إنّ هذه الأنظمة لا تمنح شعوبها وأفرادها فرصة
للعدالة التي تضمن الحقوق، وهنا يكمن الخطر، لأنّ
هذه المجتمعات تكون دائماً عرضة للتمزّق والتشظّي
والتدخلات الخارجية، ومسرحاً لحروب أو ثورات يدفع
ثمنها الأبرياء، وفي ذلك ظلم كبير لهم.

من هنا تبرز المسؤولية الجماعية لإقرار قوانين وتشريعات تضمن وتصون العدالة في أيّ مجتمع حتى لا يكون عرضة للهلاك والدمار، وفي عالمنا المعاصر الكثير من النماذج التي تكشف حجم المشكلات التي تعاني منها قطاعات كثيرة جراء تشريعات وقوانين غير عادلة، أو جراء تطبيق وتنفيذ هذه التشريعات بطريقة غير منصفة.

إنّ المسؤولية الجماعية عن العدل كبيرة ومهمّة جدّاً في عالمنا المعاصر لأنها كفيلة بسنّ تشريعات وتطبيقات تضمن العدالة للأفراد في أيّ مجتمع، كما تضمن العدالة للدول بحيث لا تجور أيّة دولة على أخرى بسبب أطماع أو حب سيطرة أو توسّع. ثمّ إنّ هذه المسؤولية إذا ما مورست بشكل جيّد كفيلة بوضع حدّ

لكثير من الحروب والمشكلات الفردية والجماعية،
وإرساء نوع من الاستقرار في حياة الأفراد والمجتمعات.

ولعلّ أهمّ شيء في العدل هو التنفيذ، إذ لا يكفي
أن تكون هناك قواعد وقوانين عامة تضع الضوابط
لضمان إقامة العدل في المجتمع أو بين الأفراد، لأنّ
التنفيذ من عمل البشر، ولذلك لا بدّ أن تقترن تلك
الضوابط والقواعد والقوانين بالتنفيذ العادل من الأفراد
والمؤسسات، وإلاّ تفقد قيمتها.

كما وأنّ إقامة العدل تقتضي أخلاقاً عادلة تحوّل
الإنسان إلى موقع الحَكَم والخصم في آن وتدفعه إلى
القسط وإنصاف الناس وإعطائهم حقوقهم.

والعدل كما يكون بالممارسة وتطبيق الأحكام واتباع
السياسات التي تضمن وصول الحقوق إلى أصحابها،

يكون أيضاً بالقول والكلام الذي يُعتبر مدخلاً ومفتاحاً
لآية عملية عادلة في أي شيء. قال تعالى : ﴿ وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ^ط وَأَوْفُوا^ط الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ^ط لَا تُكَلِّفُوا
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^ط وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ^ط
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا^ط ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿^(١) فالعدل كما يكون بالممارسة يكون
أيضاً بقول الحق والنطق به ليظهر ويأخذ كل ذي حق
حقه.

١ - الأنعام ؛ ١٥٢.

إنّ معرفة الإنسان لهذه المقاصد تعني معرفته
لسبب تواجده في الأرض، ولوظيفته الأساسية التي
ينبغي عليه القيام بها، وإلاّ فإنه سيُسأل عنها ويحاسب
عليها أمام الله يوم القيامة.

إنّ معرفة هذه المقاصد والعمل بها يشكّل مفتاحاً
وسبباً جوهرياً وأساسياً لسعادة الإنسان في الدنيا، وفوزه
بالنّجاة عند الله يوم القيامة.

إنّ القيام بأداء هذه المقاصد يوفّر على البشرية
صراعات دموية كثيرة، وحروباً عبثية لا طائل من ورائها
سوى بعتة الأموال وإزهاق الأرواح والدماء، وتبيدياً
للثروات التي ينبغي أن ينتفع بها ومنها الإنسان في
عملية البناء والنهوض والإعمار. فضلاً عن أنّ أداء
هذه المقاصد يزيد من ترابط المجتمعات واستقرارها

ونموّها وازدهارها وتأمين أفضل وأحسن أنواع الحياة لكل
البشر. وهذا هو المطلوب الذي على الإنسان أن يجهد
ويسعى إليه.

وإنّ أولى الناس بالقيام بهذه المقاصد هم المسلمون
الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام، الدين الخالد الذي
به عرفنا تكريمنا ودورنا في الحياة، ولأنّهم امتداد لحياة
ودعوات الأنبياء والرسل الذين جاؤوا جميعهم بهذه
المقاصد.

إنّ أيّة مخالفة لمفاهيم هذه المقاصد، حتى لو أنّ
أصحابها ادّعوا أو زعموا أنّهم حقّقوا لجماعاتهم أو
أتباعهم الفتوحات والنجاحات والسيطرة على كل العالم،
وأخضعوا الناس لمنطقهم وإنّ ظنّوا أنّه إسلامي، لا
تعني شيئاً عند الله يوم القيامة، لأنّ هؤلاء - ببساطة -

نهجوا نهجاً بعيداً عن المقصد الذي أَرَادَهُ اللهُ لتواجد
الإنسان على ظهر الكوكب.

إنَّ هناك العديد من الدول والأنظمة والجماعات
والحركات والأحزاب والمجموعات التي ترفع شعار
الإسلام، وتقول إنَّها تنطلق منه لممارسة الحركة والفعل
في الحياة، غير أنَّها تقدِّم اعتباراتها الخاصة على
مقاصد الدين والرسالة، فهي من الخاسرين، حتى لو
ظنَّت أنَّها فتحت مشارق الأرض ومغاربها وأخضعته
لمنطقها.

مقومات القيام بالخلافة

مقومات القيام بالخلافة

إنّ مقاصد استخلاف آدم (عليه السلام) في الأرض بانّت واضحة ومعروفة، غير أنّ القيام بالخلافة وتحقيق مقاصدها في الأرض يحتاج إلى مقومات وعناصر بدونها لا تتحقّق الغاية المرجّوة والهدف المنشود.

وإذا كان الله قد هبّاً للإنسان كل المقومات المادية المحسوسة للقيام بهذه الوظيفة، فسخر له ما في الأرض وما عليها وما في باطنها، وما في السماء وما تحتها، وعلمه من العلوم ما يطوّع به المواد المحيطة به، فزرع وصنع وابتكر واخترع حتى طوى المسافات وقلّص الفروقات، وألان الحديد، وكاد أن يخرق السماء، بعد أن خرق الفضاء وطار فيه، وحفر بطن الأرض فوصل إلى

أعماقها، وشق عباب أمواج المحيطات والبحار، وفعل ما فعل، فإنّ هناك مقوّمات أخرى تتصل بإرادة الإنسان وإدراكه وفهمه لمغزى وهدف وجوده في الأرض.

إنّ المقوّمات التي تتصل بإرادة الإنسان في القيام بالخلافة هي الأساس بعد أن هياً الله له الإمكانيات الماديّة المحسوسة ووضعها في تصرّفه، وإنّ أهم وأبرز هذه المقوّمات يتمثل في ثلاثة عناصر أساسية هي : الإيمان، الاستقامة، والعمل. ولذلك فإنّ المطلوب من الإنسان أن يقوم بهذه العناصر على أتمّ وأحسن وجه حتى يتمكن من القيام بموجبات الخلافة ويحقق مقاصدها.

الإيمان

الإيمان لغة : هو الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة. وآمن به إيماناً: صدّقه (١). وهو لفظة مأخوذة من الأمان. والأمن ضد الخوف. قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٢). فالإيمان هو التصديق والثقة بالشيء وجعل القلب مستقراً نحوه فلا يشعر تجاهه بالشك أو الارتياب أو الخوف والقلق.

١ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١١٧٦.

٢ - قریش ؛ ٤.

والإيمان اصطلاحاً قد اختلف فيه العلماء على قولين؛ فمنهم من قال إنّ الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وهؤلاء استدلوا على ذلك بقول رسول الله (ﷺ) فيما رواه سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أن رسول الله سئل: أيّ العمل أفضل؟ فقال: ((إيمان بالله ورسوله)). قيل: ثمّ ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)). قيل: ثمّ ماذا؟ قال: ((حجّ مبرور))^(١)، فضلاً عن آيات وأحاديث أخرى تدخل في هذا السياق.

١ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إنّ الإيمان

هو العمل، ص ١٦.

وقال غيرهم إنّ الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، فلا يدخل فيه العمل بالجوارح (١).

وذهب أهل التفسير إلى القول: إنّ الإيمان هو التصديق، مستشهدين بقول الله تعالى حكاية عن إخوة النبي يوسف (عليه السلام): ﴿ قَالُوا يَتَّبِعَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّبُّ^ط وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (٢). أي ما أنت بمصدق لنا حتى لو كنا صادقين فيما نقول.

١ - محمد نعيم ياسين، كتاب الإيمان (أركانه - حقيقته - مواضعه)، الاسكندرية، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٨٥.

٢ - يوسف؛ ١٧.

وهناك فرق بين الإسلام والإيمان، إذ أنّ الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام. فعن عمر رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله (ﷺ) ذات يوم إذ طَلَعَ علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منّا أحدٌ، حتى جلس إلى النبيّ (ﷺ)، فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله (ﷺ): ((الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً))، قال: صدقتَ، فعَجِبْنَا له يسأله ويُصدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: ((أن تؤمنَ بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدرَ خيره وشره))، قال: صدقتَ، فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ((أن تعبدَ

الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل))، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: ((أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان))، ثم انطلق فلبيت ملياً ثم قال: ((يا عمر أتدري من السائل))؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))^(١).

وفي رواية البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي (ﷺ) بارزاً يوماً للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال (ﷺ): ((الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسوله، وتؤمن بالبعث)). قال الرجل

١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، ص ٢٣.

: ما الإسلام؟ قال (ﷺ) : ((الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)). قال : ما الإحسان؟ قال (ﷺ) : ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)) ... ثم بعد السؤال عن الساعة واشراطها قال : ((هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)) (١).

فالإسلام له أركانه التي بيّنها رسول الله (ﷺ)، والإيمان له أركانه، وهو مرتبة أعلى من الإسلام، ودلّ على ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

١ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والأحسان، ص ٢٣.

الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ
 مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾. فهؤلاء
 الأعراب لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم بعد، لحديث
 عهدهم بالإسلام، وكانوا قد نطقوا بالشهادتين وأدّوا ما
 عليهم من أركان الإسلام (٢)، وبذلك بيّنت الآية الكريمة
 أن الإيمان شيء أخصّ من الإسلام.

والإيمان يزيد وينقص في قلب الإنسان بحسب
 الأحوال والظروف. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾

١ - الحجرات ؛ ١٤ .

٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص ٧٢٦ .

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

﴿^(١) وفي حديث النبي (ﷺ) قال : ((يخرج من في النَّار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من في النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من في النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرَّة من خير))^(٢). فهذا الحديث يدلُّ أنّ القلوب قد يكون فيها أوزان من الإيمان مختلفة بين شخص وآخر، وهذا دليل أن الإيمان في القلب ليس واحداً وهو بحدّ ذاته دليل أنه يزداد وينقص.

١ - الفتح ؛ ٤ .

٢ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ص ٢١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال : ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حيث يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها هو مؤمن)) (١). وهذا دليل أيضاً أن لحظة التخلّي تلك ينقص فيها الإيمان في القلب إلى الحدود الدنيا، والتي قد يستعيدها فوراً بالتوبة والإنابة.

كما وأنّ الله بيّن لنا أنّه طالب المؤمنين أصلاً بالإيمان، وهذا يعني تجديد إيمانهم، أو زيادته في قلوبهم. قال تعالى : ﴿ يَتَأْتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ

١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، ص ٤٥.

الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ^١ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾

والإيمان له أركانه التي بيّنتها الآية الكريمة في قول
الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ
مِنْ قَبْلُ^٢ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٢). وهي
الأركان التي وردت في حديث النبي (ﷺ) ((أن تؤمن

١ - النساء ؛ ١٣٦ .

٢ - النساء ؛ ١٣٦ .

بالله وملائكته وكُتبه ورسُله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر
خيرهِ وشرِّهِ)) (١).

وإذا انتقلنا من الحديث عن تعريف الإيمان، وعن
أركانه وصفاته إلى الحديث عن مقومات القيام
بالخلافة، فيمكن القول إنَّ من أبرز مقومات القيام
بالخلافة الإيمان بالفكرة والتصديق والثقة بها والتعامل
معها على هذا الأساس.

إنَّ أول عنصر من عناصر القيام بالخلافة يتمثَّل
في القناعة والإيمان التامَّين بأنَّ وظيفة الإنسان في
الأرض، وهو ما نسمِّيه المقصد، هو في العناصر التي
تمَّ ذكرها، وهي العبادة، والإعمار، وإقامة العدل.

١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان
والإسلام والقدر، ص ٢٣.

إذا كان هناك أيّ شكّ أو خلل في قناعة الإنسان بهذه الوظيفة المنوطة به، فهذا يعني أنّه لن يتعامل معها بجديّة، ويبدل في سبيلها ما يستطيع من جهد، ويجعلها الضابط والحافز لمنطلقه في الحياة في أيّ ميدان من الميادين.

فالإيمان بهذه المقاصد (العبادة، الإعمار، إقامة العدل) هو جزء لا ينفك عن الإيمان بالله وملائكته ورسوله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله. وأساساً فإنّ هذه المقاصد جزء لا يتجزأ من آيات القرآن الكريم الدالة على هذه الوظيفة، وبالتالي فإنّ الإيمان بها جزء لا يتجزأ من الإيمان بالقرآن.

المسألة الأخرى المتصلة بهذا الإيمان هي في الإيمان بصلاحها. فالإنسان يجب أن يعرف ويكون

على ثقة أنّ هذه المقاصد هي في صالح الناس أجمعين، ومن أجل سعادتهم، وهي صالحة لتكون مادة دائمة الحيوية والتجدد حتى يرث الله الأرض ومن عليها. إذا شكّ الإنسان للحظة واحدة بعدم صلاح وصلاحية هذه المقاصد لحياة الناس وسعادتها فإنّه قد يتكاسل أو يتراخى في تطبيقها، أو ربما ينحرف عنها إلى سلوكيات تكون مدمّرة لحياة البشرية، وهذا ما نلاحظه في العالم المعاصر حيث تمّت التضحية بالقيم المتصلة بهذه المقاصد لصالح الطمع والجشع وحبّ السيطرة والنفوذ والاحتكار والفساد وكل هذه السلوكيات السلبية التي لم تجرّ على الناس سوى الويلات والخراب والدمار.

ولا يكفي، وكما مرّ في مسألة تعريف الإيمان، أن يكون الإيمان بهذه المقاصد قلبياً. بمعنى أن تكون في

قلب الإنسان فقط. بل لا بدّ من أن يتمّ استحضارها في قلب الإنسان من جهة والسعي لتطبيقها وتفعيلها في حياته ومحيطه من جهة أخرى. بمعنى آخر، فإنّ المطلوب هو أن يصبح تحقيق هذه المقاصد في الأرض هو الحاكم على أفعال وتصرفات الإنسان. يقول رسول الله (ﷺ) : ((الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان))^(١). في هذا الحديث الذي يشير ويحدّد شعب الإيمان يشير إلى أنّ هذه الشعب هي أفعال وأعمال وربما أقوال أيضاً، وفي دليل على أنّ الإيمان ما استقر في القلب والوجدان وما عكسته الجوارح والأطراف، ولذلك ورد في تعريف بعض العلماء أنّ الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح.

١ - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ص

وفضلاً عن ترجمة الإيمان إلى فعل، فإنّ الإيمان بهذه المقاصد يحتاج أيضاً إلى قول. بمعنى آخر لا بدّ بعد القناعة التامة اليقينية بهذه المقاصد من إطلاق العنان للألسن من أجل شرح وتعميم هذه المفاهيم والمقاصد على البشرية، إذ أنّ إبقاءها طي الكتمان يضعف الإيمان بها والتركيز عليها. لذا من الواجب استعمال واستخدام الآليات التي توصل الفكرة إلى أطراف الأرض، وتعرّز القناعة بها، ومن هذه الآليات استخدام الوسائل الإعلامية على تعدّدها وتنوّعها في شرح هذه المقاصد وتعميم فهمها على الناس، وفي الدفع باتجاه القيام بها أحسن قيام، ولا يخفى على أحد في عصرنا الحالي، وفي كل العصور، حجم الدور الإعلامي الكبير في تشكيل القناعات والرأي العام، أو في التشكيك حتى بالمسلّمات أحياناً.

من هنا يقع على عاتق الوسائل الإعلامية دور كبير في تعزيز هذه المقاصد، وفي إعمار الأرض وأقامة العدل فيها فضلاً عن توجيه الخلق إلى عبادة الخالق. غير أننا نجد في عالم اليوم الذي طغت فيه القيم المادية، ومحاولات الكسب السريع والريح الفاحش الخارج عن الضوابط، نجد أنّ وسائل إعلام كثيرة على مستوى العالم تقوم بوظيفة الهدم وبث الأحقاد والضغائن والفتن والتحريض على القتل، وبالتالي نشر الفساد والفوضى وسفك الدماء، أكثر مما تقوم بعمليات الإصلاح والدفع إلى البناء والنهوض والعمران وإشاعة أجواء العدل والقيم والأخلاق.

إنّ عمل اللسان خطير جداً فهو إمّا أن يكبّ صاحبه في النار إذا انفلت من عقاله وضوابطه وسار بالنميمة والشااية والفتنة وقول الزور والتحريض وإشاعة

الفاحشة وغيرها، وإما أن يكون وسيلة تجعل الإنسان في أعلى المراتب إذا عمل ضمن الضوابط التي حددها الله تعالى له من الأمر وبالعرف والنهي عن المنكر وقول الحق وشهادة الحق والذكر والدعوة ونشر الخير والعلم وغيرها وكل ما يسهم في رفعة البشرية واستقرارها. روى معاذ بن جبل أنه سأل رسول الله (ﷺ) عن عمل يقربه إلى الجنة ويباعده عن النار، فأجابه رسول الله (ﷺ) شارحاً ومعدداً له التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغيره، ثم ختم قائلاً: ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلِّهِ))؟ فقلت: بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) . قلت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ((تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى

وَجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ
الْسِنْتِهِمْ؟!)) (١).

إنَّ الإيمان بهذه المقاصد هو الذي يدفع الإنسان
إلى العمل من أجلها ليعمَّ السلام والأمن الأرض. وإنَّ
تجاهل هذه المقاصد أو الكفر بها وجودها يدفع إلى
تجاهلها وبالتالي التحرك في الحياة من دون ضوابط
وخطط وبرامج واضحة تضمن لكل سكّان الكوكب
حقوقهم واختياراتهم، وعليه فإنَّ هذا الإيمان بهذه
المقاصد يشكّل خارطة طريق للإنسان من أجل النهوض
بأعباء الخلافة من العبادة والإعمار والعدل.

١ - الترمذي، الجامع الكبير، أبواب الإيمان، باب ما جاء في
حرمة الصلاة، ص ٣٦٢.

الاستقامة

الاستقامة وهي ثاني أهم عنصر من عناصر أو مقومات القيام بالخلافة.

والاستقامة من فعل قام قومة وقوماً وقياماً وقامة : أي انتصب فهو قائم. وقام الأمر : أي اعتدل كاستقام. وأقام بالمكان : أي دام. وقومت السلعة : أي ثمنتها (١). وهذا من الناحية اللغوية.

وفي الرياضيات، الخط المستقيم هو الخط الذي لا ميل فيه ولا اعوجاج وهو أقرب مسافة بين نقطتين.

١ - الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص ١١٥٢.

والاستقامة من الناحية الاصطلاحية هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ^ط وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ^ع ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١)، من غير ميل عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها، الظاهرة والباطنة. قال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ^ط وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ ^ط وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ^ط وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ^ط وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ^ط اللَّهُ

١ - الأنعام؛ ١٥٣.

رَبُّنَا وَرَبِّكُمْ^ط لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ^ط لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ^ط اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا^ط وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١﴾

والصراط المستقيم هو دين الله القيم المستقيم الذي
"شرعه لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة
والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن طريق الهدى". عن
ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله يوماً خطاً ثمّ قال
هذه سبيل الله، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه ويساره ثمّ
قال: هذه سبيل على كل منها شيطان يدعو إليها، ثمّ قرأ
: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ... ﴾ (٢).

١ - الشورى ؛ ١٥ .

٢ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، المجلد الأول،
ص ٤٢٩ .

والمؤمن يدعو الله في كل صلاة، بل في كل وقت أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم وذلك عندما يتلو الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة. قال تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١). وكثيرة هي الآيات في القرآن الكريمة التي ذكرت الاستقامة وحثت عليها وطالبت المؤمنين التزامها.

كما وأن النبي (ﷺ) عندما سُئل عن قول يختصر الإسلام ويعبر عنه أشار إلى الإيمان المقترن بالاستقامة. عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً

١ - الفاتحة ؛ ٦.

بعذك (وفي رواية غيرك) . قال : ((قل آمنت بالله، فاستقم)) (١).

فالاستقامة على هذا الأساس التزام لا لبس ولا ميل ولا اعوجاج فيه بما آمن به الإنسان، فلا انحراف ولا تقصير ولا خروج عن الجادة والمقصد الذي طلبه الإسلام.

وفضل الاستقامة كبير جداً، ويكفي أن يشير رسول الله (ﷺ) إليها مختصراً كل الالتزام بدين الله وتعاليمه كما ورد في الحديث الآنف. غير أن هناك الكثير من النتائج الإيجابية التي يحصدها المرء إذا ما كان مستقيماً، ولعل أهمها رضا الله في الدنيا وغفرانه في

١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف

الإسلام، ص ٣٩.

الآخرة. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ^(١). فأول بشرى لهم أن لهم الجنة التي وعدوا بها، فضلاً عن أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأنهم يدركون من خلال استقامتهم أن الله محيط بهم يراهم بملائكته الذين يكونون دائماً معهم. هؤلاء اختصروا العلاقة والصلة بالله من خلال هذا الخط المستقيم، ومن خلال هذه الاستقامة في الإيمان والقول والعمل. وقد أشار الله تعالى إلى هذه النتيجة في آية أخرى. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١﴾.

المسألة الأخرى لنتائج الاستقامة في حياة الإنسان،
وهي في الدنيا، وليس في الآخرة فحسب، أن الاستقامة
سبيل للبركة والرزق والسعة والسعادة في الدنيا. قال
تعالى : ﴿ وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً
غَدَقًا ﴾ (٢). في حكاية عن الجنّ الذين خرجوا عن
الجادة والطريقة القويمة، فذكرهم أنه لو استقاموا وأكملوا
مسيرتهم وفق هذا الصراط المستقيم، لأسقاهم الله ماءً

١ - الأحقاف ؛ ١٣.

٢ - الجن ؛ ١٦.

غدقاً. والماء الغدق : هو العذب المعين وقاله ابن عباس. أو الواسع الكثير وقاله مجاهد ^(١). وفي ذلك إشارة إلى الماء الوافر وسعة الرزق والمال، لأنه حيث يكثر الماء يكثر المال، لأن الله جعل من الماء كل شيء حيّ.

وفي آية أخرى تدلّ على هذا المعنى، قال تعالى :
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٢). وفي آية لها علاقة

١ - الماوردي، النكت والعيون تفسير الماوردي، المجلد السادس، ص ١١٧.

٢ - الأعراف ؛ ٩٦.

بالاستقامة والحياة التي يعيشها المرء في الدنيا. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۗ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وأما أهمية الاستقامة في الحياة العملية للناس، فإنّ التعامل باستقامة بين البشر يرسى نوعاً من الثقة والمصداقية والاستقرار في العلاقات. فالموظف المستقيم في أداء وظيفته ولا يقصر في واجباته يجني ثمار ذلك ثقة من إدارته به واستقراراً في حياته الوظيفية ورزقه وعمله. والمزارع المستقيم في زراعته يساعده ذلك على تصريف إنتاجه الزراعي لأنّ الناس تثق بجودة هذا

١ - النحل ؛ ٩٧.

الانتاج. والصناعي المستقيم في صناعته يحصد ثمار ذلك أسواقاً مفتوحة أمام إنتاجه الصناعي. والتاجر المستقيم في تجارته يكسب المزيد من الزبائن ويفتح المزيد من الأسواق ويكسب المزيد من الأرباح. والعالم المستقيم في اختراعاته العلمية لا ينتج إلا ما هو صالح لهذه البشرية ويسهل عليها في حياتها. والجندي المستقيم في جنديته يحمي الوطن من شرور الأعداء الذين يترصبون به. والسياسي المستقيم في سياسته لا يخطط ولا يرسم إلا ما فيه الخير. والحاكم المستقيم في حكمه يحكم رعيته بالعدل والإنصاف ويسهر على مصالحهم. وهكذا هي الأمور بالنسبة لأي اختصاص، وهذا على المستوى الفردي الذي إذا توفّر وتحصّل للناس ينعكس استقامة على المستوى الجماعي بحيث أنّ المؤسسات (دولة، حكومة، مجلس نيابي، قضاء، شركات، منظمات،

جمعيات، مؤسسات ألخ...) كل تلك إذا كانت مستقيمة في أداء دورها فإن استقامتها تنعكس إيجاباً على كل أبناء المجتمع. تخيل أن تكون الدولة والحكومة مستقيمة في أدائها وكيف يمكن أن ينعكس ذلك على حياة المواطنين رفاهية وتنمية وألفة وغير ذلك. تخيل عندما يكون القضاء مستقيماً لا يعود هناك مظلوم أو سجين يقبع في زاوية وهو يحاسب على رأي كفله له القانون والشرع. تخيل عندما يكون المجلس النيابي مستقيماً كيف يشرع القوانين التي تتصف الناس وتكون في صالحهم، وكيف يسهر على رقابة أداء الحكومة حتى لا تقصر بشيء. تخيل كل تلك الوظائف لو كانت محكومة بالاستقامة كيف تنتهي المشكلات، أو تتقلص إلى أدنى مستوى بين الأفراد، وبين الدولة، وبين المجتمعات.

هي الاستقامة عظيمة جداً في حياة الناس،
تخلصهم من الطمع والحقد والحسد والضغينة وحب
السيطرة والفساد والغش والأمراض النفسية على تعددها
ومخاطرها. هي الاستقامة المقترنة بالإيمان، أو النابعة
عنه تشكل عنصراً مهماً من عناصر القيام بأعباء
الخلافة في الأرض.

إنّ للاستقامة دوراً مهماً وبارزاً وأساسياً في عملية
النهوض بالمجتمعات وبالخلافة، وكذلك بعملية الإعمار
وإقامة العدل، وإنّ معظم المشكلات التي تعانيها الكثير
من الدول والحكومات عبر العالم، وحتى المؤسسات
الخاصة، تكمن في إشكالية الفساد المستشري فيها والذي
يعيق عملية البناء والنهوض. كما وأننا نجد أنه كلما
انخفض مؤشر الفساد في مجتمع معين كلما لاحظنا
تطور وتقدم هذا المجتمع، وهذا ما يدلّ على أهمية

الاستقامة في حياة الأفراد والأمم والشعوب والمجتمعات،
بل أهميتها في إعمار الأرض وإسعاد الإنسان.

وأخيراً فإنَّ الاستقامة هي نوع من أنواع استشعار
مراقبة الله لعبده في سرّه وعلنه. هي حالة الإحسان التي
تحدّث عنها النبي (ﷺ) عندما سأله جبريل عن
الإحسان، فقال : ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن
تراه، فإنّه يراك))^(١).

١ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان وبيان
خصاله، ص ٢٤.

العَمَل

والعمل هو ثالث ضلع من أضلاع مثلث القيام بالخلافة. أو هو ثالث أبرز مقومات القيام بالخلافة. إذ أنّ الإيمان والاستقامة القلبية واللفظية إذا لم يكونا مقرونين بالعمل، أي إيمان واستقامة وعمل، فلا يكون هناك قيام حقيقيّ بأعباء الخلافة، ولا تحقيق لمقاصدها. ولذلك فإنّ القيام بالخلافة وتحقيق مقاصدها، رهن بهذه الثلاثية القائمة على ثلاثة أضلاع هي: الإيمان والاستقامة والعمل.

والعَمَلُ لغة : المِهْنَةُ والفِعْلُ. وأَعْمَلَ رأيه وآلته : أي
استعملها وعمل بها ^(١). فالعمل هو كل فعل أو حركة
يقوم بها الإنسان وينتج عنها شيء، بغض النظر ما
يمكن أن يكون.

والعمل لفظة وردت هي ومشتقاتها في القرآن الكريم
مئات المرّات بحيث لا تخلوا سورة تقريباً من القرآن إلا
وتحدثت أو أشارت إشارة صريحة أو ضمنية إلى
ضرورة العمل وإلى ثوابه ودوره في الدنيا والآخرة.

فقد ورد فعل (عمل) بصيغة الماضي والحاضر
والأمر في مئتين وأربع وسبعين آية في سبع وستين

١ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١٠٣٦.

سورة من سور القرآن، كلها تحدّثت عن العمل وحثّت عليه ودعت إليه.

والعمل مطلوب من الإنسان بشكل دائم ومتواصل ما خلال الأوقات التي يخلد فيها للراحة والنوم واستجماع قواه من جديد. قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿٢﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (١). فالليل للنوم والراحة والسبات، والنهار لكسب الرزق والعمل والحركة والمعاش.

وقد حثّت الآيات القرآنية الكريمة على العمل وأكّدت على الثواب على العمل الصالح، والعقاب على العمل

١ - النبأ ؛ ٩ - ١١ .

الذي يتخطى أصحابه وأمر الله ونواهيته. بمعنى آخر، العمل الذي يحمل إثمًا ومعصية.

فمن الآيات الكريمة التي وردت في القرآن وأكدت على ثواب العمل الصالح عند الله، قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١).

فجزاء الإيمان المقترن بالعمل الصالح الخلود في الجنة

والنعيم الكبير. وهناك عشرات الآيات التي تتحدث عن هذا النعيم.

وكما في الآخرة، فكذلك في الدنيا، فإن جزاء العمل الصالح محفوظ وله أثره الطيب والمباشر. قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

كما ساق الله لنا قصة الرجل الصالح الذي كان يعمل عملاً صالحاً كيف حفظ الله له ذريته من بعده. قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

١ - النحل ؛ ٩٧.

الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۗ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۗ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾. لقد حفظ الله للغلامين اليتيمين
ذاك الكنز الذي كان مدفوناً تحت الجدار لأن والدهما
كان رجلاً صالحاً.

إنّ هذه الآيات وغيرها من التي حثت على العمل
الصالح تطالبنا وتحثنا على الإيمان والعمل والصالح
الدائم لما له من أثر على حسابنا في الآخرة، وعلى
حياتنا في الدنيا، وكذلك ما له من أثر على حياة الأفراد
المحيطين بنا، لأنّ العمل الصالح لا يقتصر مردوده

ونتأجه على الشخص الذي يقوم به فحسب، بل على غيره من البشر سواء كانوا محيطين به أو حتى بعيدين عنه.

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التي حثت على العمل، وطالبت به، وكرهت الركون والسكون والدعة فهي كثيرة أيضاً. قال رسول الله (ﷺ) : ((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُرْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفَى اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ"))^(١). فهذا الحديث يحضّ على العمل وكسب الرزق من خلال بذل الجهد، ويكره الركون إلى المسألة ويؤكد على ضرورة العمل والإنتاج.

١ - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٣٥٨.

كما بيّن رسول الله (ﷺ) أنّ إساءة خدمة أو عمل لأخيك المسلم فيه خير يفوق عبادة ليلة كاملة أو ربما أكثر. قال (ﷺ) : ((لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته . وأشار بأصبعه . أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين))^(١). وبعض هذا الحديث قوله (ﷺ) : ((من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته))^(٢).

١ - سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠)، الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت، المكتب الاسلامي، عمان، دار عمّار، ط ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ج ٢، ص ١٠٦.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ص ٥٩١. وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ص ١١٩٩.

فضلاً عن ذلك فقد شجّع الإسلام على العمل،
ودعا إلى استثمار الأرض بالغرس كنوع من التشجيع
على العمل الزراعي. قال رسول الله (ﷺ) : ((لَا يَغْرِسُ
مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا
شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ)) (١).

كما شجّع على استصلاح الأرض وعدم تركها
بوراً. روت السيّدّة عائشة رضي الله عنها، أنّ رسول الله
(ﷺ) قال: ((من أحيا أرضاً ليست لأحد فهو أحق
بها))، وفي رواية ((من أعمّر أرضاً ليست لأحد فهو

١ - صحيح مسلم، كتاب المساقاة والمزارعة، باب فضل الغرس
والزرع، ص ٧٢٩.

أحقّ)) (١). قال عروة: قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته. ثم جاءت التنظيمات والتشريعات التي تضبط هذه المسألة بعد التمدد العمراني والسكاني واختلاف طبيعة الحياة، حتى لا تتحوّل في لحظة من اللحظات إلى نوع من الصراعات الدموية التي تدخل في إطار سفك الدماء والهدم.

ليس هذا فحسب، بل إنّ الإسلام قد دعا إلى الاستمرار في العمل وعدم التوقف وبذل الجهد الكامل في عملية التعمير والزراعة حتى لو رأى أنّ الساعة تقوم، وأنّ الكون ينتهي، وأتته لا أمل بعد ذلك بالحياة، ومع هذا شجّع على الغرس والعمل. قال رسول الله (ﷺ)

١ - صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضاً، ص

: ((إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها))^(١). فهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على اهتمام الإسلام بالعمل، والحثّ عليه حتى في أصعب والأوقات وأدقّها.

وأما أنواع العمل التي يمكن أن يقوم بها الإنسان فهي كثيرة ومتعددة، منها ما يتصل بعبادته، ومنها ما يتصل بتربيته، ومنها ما يتصل بحياته وحاجاته، ومنها ما يتصل بدفاعه عن نفسه، ومنها ما يتصل بعملية البناء والتطوير، ومنها الفردي الذي يقوم به بنفسه من غير حاجة إلى غيره، ومنها الجماعي الذي يحتاج فيه إلى جهد وعمل الآخرين لحسن إنجازه، وقيمة إنتاجه.

١ - صحيح البخاري، الأدب المفرد، باب اصطناع المال، ص

العمل العبادي :

وهو عندما يؤدي الإنسان العبادات التي فرضها الله تعالى عليه، من صلاة وصوم وزكاة وحجّ وصدقات وغيرها. وهذه قد يكون لها أثرها على الفرد ذاته، وعلى المحيط الذي يتحرك به. وتحتاج كما مرّ الشرح معنا سابقاً إلى نيّة صادقة مخصصة، لأنّها فرائض فرضها الله على العبد، يؤجر إذا أداها وقام بها، ويعاقب إذا تركها وتكاسل عنها. ويجب أن تؤدّى على الهيئة والكيفية التي أرادها الله تعالى، وأخبرنا بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ)، فهي عمل توقيفي ليس لنا فيه اجتهاد إلا ما أتاحه النصّ.

العمل الإنتاجي أو البنائي :

وهو العمل الذي يتوقف عليه حركة تطوّر وازدهار المجتمع أو العالم في المجالات المتعدّدة. فالمعروف أنّ العالم في حالة نمو سكاني وتمدّد عمراني، وهذا يحتاج بدوره إلى تطوّر وتقدّم حركة العمران والصناعة والزراعة والتجارة والبناء والمواصلات والاتصالات والابتكارات وغيرها، وإلاّ فإنّ الجمود يعني توقف حركة الكون، وعدم تلبية حاجات البشر، وهذا قد يفسد الحياة، خاصة وأنّ الله قد أودع في هذه الأرض كل ما يحتاجه الإنسان لتطویر حياته وآليات القيام بما يتوجّب عليه. فالأرض تخزن في بطنها وعلى ظهرها المواد الخام والطاقة الهائلة التي يحتاجها الإنسان في عملية التطوير ومواكبة ما يتوصل إليه من ابتكارات واختراعات. ورأينا كيف أنّ اكتشاف النفط في باطن الأرض أحدث ثورة

كبيرة في مجالات لا تعدّ ولا تحصى. وكذلك الحديد
وسائر المعادن الأخرى، فضلاً عن أمور كثيرة ليس من
السهولة ذكرها جميعاً.

ومن ضمن العمل البنائي والإنتاجي يأتي العمل
الصناعي، والعمل الزراعي، والعمل التجاري، والتطوير
في مسائل التنمية البشرية ورفع الكفاءات، وتركيز
الاختصاصات، إلى ما هنالك من أمور وقضايا.

وللتدليل على سبيل المثال لا الحصر في مسائل
تتصل بالعمل البنائي والإنتاجي، وغير موضوع التشجيع
على الغرس والزراعة. فقد كان للعمل الصناعي نصيب
مهمّ من الاهتمام الإسلامي حيث ذكر الله لنا أنه أوحى
إلى النبيّ نوح (عليه السلام) أن يصنع السفينة، بمعنى آخر
أنّه علّمه صناعة السفن. قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنْ أَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
 إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ^ط وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ
 ظَلَمُوا^ط إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١﴾

وفي موازاة ذلك، ذكر الله لنا أيضاً أن النبيّ داود
 (عليه السلام) كان يعمل حدّاداً حيث آلان الله له الحديد وعلمه
 هذه الصنعة. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا
 فَضْلًا^ط يَجِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ^ط وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١﴾

أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

أَمَّا نَبِيُّ اللَّهِ زَكْرِيَّا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ نَجَّارًا كَمَا
أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ). قَالَ: ((كَانَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ
نَجَّارًا)) (٢).

كَمَا وَأَنَّهُ هُوَ (ﷺ) قَدْ عَمِلَ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، كَمَا عَمِلَ
تَاجِرًا فِي تِجَارَةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. قَالَ ابْنُ
إِسْحَاقَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ

١ - سبأ؛ ١٠ - ١١.

٢ - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل زكريا عليه
السلام، ص ١١١٦.

إلا وقد رعى الغنم)) . قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال " ((وأنا))^(١).

وكذلك في مسألة التجارة حيث قال ابن اسحاق :
وكانت خديجة بنت خويلد تاجرة، ذات شرف ومال،
تستأجر الرجال في مالها، وتضارهم إياه، بشيء تجعله
لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله
(ﷺ) ما بلغها: من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم
أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها
إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره

١ - أبو محمد عبد الملك بن هشام (.. - ٢١٨)، السيرة النبوية، تعليق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، س ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م، ج ١، ص ١٩١.

من التجار، مع غلام لها يقال له : ميسرة، فقبله رسول الله (ﷺ) منها، وخرج في مالها ذلك (١).

وأصناف عمل البناء والإنتاج لا تنتهي، ولا تتوقف وهي في حالة تطوّر دائم يرتبط بتطوّر الزمن.

العمل الجهادي

والجهاد هو عمل وفعل وبذل. وهو ذروة سنام الإسلام. فعن معاذ بن جبل أنّ رسول الله (ﷺ) قال له شارحاً وموضّحاً: ((ألا أخبرك برأس الإسلام وعموده وذروة سنامه))؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: ((رأس

١ - ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٢١٢ - ٢١٣.

الأمر بالإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد
في سبيل الله))^(١). وذروة السنام هي أعلى مكان من
ظهر الجمل وأكثر ما يظهر منه، وقد شبه رسول الله
(ﷺ) الجهاد بذروة سنام الجمل لأنّ الإسلام أكثر ما
يظهر به.

والجهاد لا يعني القتال فحسب، وإن كان القتال أحد
معانيه، لما فيه من بذل الجهد والطاقة والنفس والمال.
وقد شرعه الله دفاعاً عن النفس وعن الدين. قال تعالى:
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا^٤ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٥﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ

١ - الترمذي، الجامع الكبير، باب ما جاء في حرمة الصلاة،
ج ٤، ص ٣٦٣.

إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ^١ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ هَدَمْتُمْ صَوَامِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ
 فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا^٢ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ^٣
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾. بل وجعل الله للذين
 يُقْتَلُونَ في سبيله ودفاعاً عن أنفسهم وأمتهم ودينهم
 المرتبة العالية في الجنة، ومقام الشهداء. قال تعالى : ﴿
 إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ^٤ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ^٥ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 وَالْقُرْآنِ^٦ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ^٧ فَاسْتَبْشِرُوا

١ - الحج ؛ ٣٩ - ٤٠ .

بِيعِعُكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ^ع وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿

(١).

هو القتال إذا أحد معاني الجهاد وقد جعل الله لأصحابه أجراً عظيماً طالما أنه مربوط برضا والله وضمن الضوابط والأحكام التي فرضها الله تعالى.

كما وأن من معاني العمل الجهادي، الإنفاق. إنفاق المال على الجهاد، أو على المشاريع الإنتاجية، أو في عمليات البناء والتطوير والابتكار، أو على العمل التربوي أو غيره. والمنفق من ماله هو مجاهد بكل تأكيد. قال تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا

بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

وكذلك من معاني العمل الجهادي قول كلمة الحق وشهادة الحق، خاصة بوجه سلطان جائر، وعلى وجه الخصوص عندما يتوقف أظهار الحق من الباطل على قول هذه الكلمة، وخاصة من العلماء ومن هم في موقع ثقة الناس بهم. قال رسول الله (ﷺ): ((إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلِ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ))^(٢).

١ - التوبة ؛ ٤١ .

٢ - الترمذي، الصحيح الجامع، ج ٤، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ص ٤٥ .

هذا وقد فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، لأنّ المجاهد يقوم بفعل له أثره على نفسه ومحيطه، وهو أحد المساهمين في إعمار الأرض وحماية العدل. في حين أن القاعد يكتفي بالانتظار دون القيام بأيّ عمل، حتى لو كان قد حبس نفسه للعبادة، وهو بالتأكيد مأجور عليها إذا أخلص النية. قال تعالى :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۗ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۗ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۗ ﴾ (١).

العمل التربوي التعليمي

ومن أصناف العمل الكثيرة التي لا تُعدّ ولا تُحصى،
العمل التربوي التعليمي. وهو عمل عظيم تتوقف عليه
مسيرة التطور والابتكار ومجارات حاجات العصر من
ناحية، وتربية النفس وتركيتها والرقى بها من ناحية
أخرى.

فمن الناحية التعليمية حسبنا أن نتذكّر أن أول آية
نزلت على نبينا محمد (ﷺ) وهو في الغار كانت ﴿ أَقْرَأْ ﴾

بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ . هي رسالة أو دعوة إلى
التعلم.

كما وأنّ الله بيّن لنا أن العلماء هم أكثر الناس
خشية له تعالى، فكلماً ازداد المرء علماً ازداد معرفة
وبالتالي ازداد خشية لله وطاعة له. قال تعالى : ﴿
وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢). كما وأنّ النبي بيّن فضل العالم عند
الله على غيره من الناس، قال (ﷺ) : ((فضل العالم

١ - العلق ؛ ١ .

٢ - فاطر ؛ ٢٨ .

على العابد كفضلي على أذناكم)) (١). وكثيرة هي الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة التي تظهر دور العلم والعلماء ومكانتهم في الدنيا والآخرة، لأنّ التعليم وسيلة أساسية للمعرفة وبالتالي تحقيق مقاصد الدين في الأرض، ولنا أن نتذكّر أنّ الله تعالى علّم آدم (عليه السلام) الأسماء، ومرّ معنا ذلك في موضع سابق من الكتاب.

إنّ العلم والتعليم فتح مجالات واسعة للإنسان للتقدّم والارتقاء بمستوى المعيشة والحياة، والتطوّر إلى مستويات اختصر فيها الزمان والمكان. وقدماً أظهر لنا النصّ القرآني كيف استطاع صاحب العلم بعلمه أن

١ - الترمذي، الصحيح الجامع، المجلد الرابع، باب في فضل الفقه على العبادة، ص ٤١٦.

ينجز ما عجز عنه عفريت من الجان. قال تعالى: ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝۲۸ ﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۗ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝۲۹﴾ (١). فصاحب العلم تفوق بعلمه على قدرة عفريت من الجن وأحضر عرش ملكة سبأ إلى نبي الله سليمان بأقل من الوقت الذي اقترحه العفريت.

وفي وقتنا الحالي لنا أن نتذكّر ونتخيّل ماذا استطاع الإنسان أن يعمل بالعلم، وإلى أين استطاع أن يصل. لنا أن نرى الاختراعات العلمية التي تبدأ من أبسط الأشياء، ولا تنتهي لا بصناعة الطائرات ولا القطارات والسفن ولا التكنولوجيا الحديثة، ولا حتى الوصول إلى القمر، ومحاولات الوصول إلى كواكب أخرى، ولا غيرها من الابتكارات والصناعات التي يعود أساسها إلى العلم والتعلم. لذلك فإن العمل التعليمي مهمّ جداً لحياتنا، ولتحقيق مقاصد ديننا ورسالتنا في إعمار الأرض وإقامة العدل وعبادة الله تعالى.

وإلى جانب العمل التعليمي فإن العمل التربوي الذي يركّز على تهذيب النفوس وسفلها، وتركيبية القلوب وربطها بالله، وإظهار عظمة ربّنا حتى يظلّ العمل التعليمي، وغيره من الأعمال الأخرى مربوطاً بالخالق،

خاضعاً لإرادته ومشئته، وحتى لا يخرج الإنسان،
بقدراته المكتسبة عن طريق العلم، عن جادة الحقّ
والصواب وما فيه خير الناس.

إنّ العمل التربوي الذي يركّز على تهذيب النفس
وتربيتها هو أساس أيضاً لأنّه يصنع الضابط والوازع
الداخلي (الضمير) الذي يبقي الإنسان ضمن دائرة
إنسانيته، ويحافظ على قدراته ومواهبه ضمن الدوائر
والأطر التي ترضي الله تعالى، وتُسعد خلقه. انظروا في
عالمنا المعاصر أيضاً كيف أنّ الذين لا يرقبون في الله
إلاً ولا ذمّة ولا يخشونه يطلقون لعقولهم المريضة العنان
بالتفكير والابتكار من دون ضوابط، وهذا ما يلحق
أحياناً كثيرة الضرر بالإنسان. انظروا كيف أنّ ابتكار
وسائل القتل الجماعية من أسلحة فتاكة (نووية وجراثومية
وغيرها) كيف يمكن أن تفتك بالناس وتقتلهم بشكل

جماعي! انظروا أيضاً كيف يمكن لهذه العقول أن تنتج المواد والابتكارات السامة أو الهدامة على المستوى الحسي والمعنوي! فالتركية والتربية كفيلة بأن تجعل الإنسان خاضعاً لضابط داخلي يقلل من حجم أخطائه، أو من حجم الضرر الذي يمكن أن يلحق بخلق الله جراء تصرفاته. قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۗ ﴿١٠﴾ ۝

وفي الجانب التربوي غالباً ما يحتاج المرء إلى مربٍّ مهما بلغ من مراتب ومنازل في الحياة، لأنَّ الإنسان بطبيعته ينسى، وهو دائماً بحاجة إلى من يذكره ويزكي

١ - الشمس ؛ ٧ - ١٠ .

نفسه، وكان الصحابة يقولون لبعضهم : "تعالوا بنا نؤمن ساعة"، بمعنى نندارس ونتذكّر ويربّي بعضنا بعضاً.

هذه عيّنة من الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الإنسان والتي تُعدّ من مقومات القيام بأعباء الخلافة، إذ أنّ الإيمان بالمقاصد وحده لا يكفي حتى تتحوّل إلى فعل يومي يحقّقها، وبالتالي فإنّ الإيمان يحتاج إلى عمل، والعمل يجب أن يكون مستقيماً، وكلّ ذلك من مقومات القيام بأعباء ومهام الخلافة في الأرض لتحقيق المقاصد التي أرادها الله تعالى.

ثم أنّ أيّ عمل من هذه الأعمال يحتاج إلى نيّة صادقة، وقلب مخلص، فضلاً عن حاجته إلى الاتقان. إذ لا يكفي أن يقوم الإنسان بأيّ عمل بأية صورة من الصور دونما احتساب للنتائج، إنّما لا بدّ للعمل أن

يترافق مع إتقان جيّد حتى تكون النتيجة جيّدة ومضمونة. قال رسول الله (ﷺ) : ((إِنْ اللهُ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ))^(١).

وأخيراً لا بدّ من التذكير أنّ من حسن العمل، وحسن إتقانه، وللحفاظ على جودته وديمومته، أوصى رسول الله (ﷺ) أن يتمّ إعطاء أيّ عامل أو أجير أجره على عمله قبل أن يجفّ عرقه صوتاً للحقوق، وضمانة لاستمرار العمل والانتاج. قال (ﷺ) : ((أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه))^(٢).

١ - البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، باب في تحريم النفوس والجنایات علیها، ج ٧، ص ٢٣٣.

٢ - ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج ٢، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء، ص ٨١٧.

إنّ العمل يبني العمل الآخر، فهي عبارة عن حلقة أو سلسلة متصلة ببعضها، خاصة بعض الأعمال التي يقف إنجازها على إنجاز بعضها الآخر، ويقف تطورها على تطوير بعضها الآخر، فإنّ تكامل هذه الأعمال يقدّم خدمة عظيمة، ويقوم بوظيفة أساسية في عملية البناء وإقامة العدل وتحقيق المقاصد.

كما وأنّ العمل هو مفتاح الرزق في الدنيا، إذ أنّ الله ذكرنا أنّه الرازق، لكنّه طلب منا أن نأخذ بالأسباب وأن نمشي في مناكب الأرض للحصول على الرزق. قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (١).

فالأية تؤكد على أنّ الله سخر ذلّل لنا الأرض، وأوع فيها أرزاقنا، لكن علينا أن نأخذ بأسباب العمل للحصول على الأرزاق، وإعمار الأرض، مع التأكيد على أنّه هو الرزاق.

وأخيراً فإنّه بالعمل على أنواعه المختلفة نستطيع أن ننجز عملية البناء وإعمار الأرض بما يرضاه الله، وبالعمل أيضاً يمكننا أن نقيم العدل الذي يرسى فيها الطمأنينة والهدوء والسكينة، بحيث أنّ القيام بذلك يجعلنا نحقق المقاصد التي أرادها الله لتواجدنا في الأرض من عبادة وإعمار وإقامة للعدل.

الرسالة الخالدة ومسئولية الإنسان

الرسالة الخالدة ومسئولية الإنسان

ارتضى أبونا آدم (عليه السلام) حمل الأمانة، وكان خليفة في الأرض، وأبناؤه وذريته من بعده، خلافت فيها إلى حين الإذن بقيام الساعة حيث يرث الله الأرض ومن وما عليها، وما من أحدٍ منّا أو من الناس متى يأتي الإذن وتقوم الساعة وينتهي كل شيء، لذا فإن مسؤولية الإنسان مستمرة إلى تلك اللحظة، أو تلك الساعة.

لقد أرسل الله، على فترات من الزمن، وأحياناً في زمن واحد، الأنبياء والرسل إلى أقوامهم ليذكروهم بمسئوليتهم، وبواجبهم، وبالعهد الذي قطعه أبوهم آدم في حمل الأمانة والاستخلاف.

لم تنقطع الرسالة والنبوة من آدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إلى سيدنا
 محمد (ﷺ). جاء الأنبياء والرسل كلهم بدين الإسلام.
 قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا
 اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
 الْعِلْمُ بَعْضًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ^(١). وكان رسول الله محمد (ﷺ) هو
 آخر الأنبياء وخاتم الرسل. قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ
 أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ ۝

١ - آل عمران ؛ ١٩ .

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١﴾. فلا نبِي ولا رسول بعد
نبوة ورسالة محمد ﷺ).

إنّ الإسلام هو دين الله إلى يوم القيامة، وإنّ رسالة
محمد هي الرسالة التي ختم الله بها رسالات السماء،
فهي رسالة خالدة بخلود الأرض ومن عليها، لا يأتيها
الباطل من بين يديها ولا من خلفها. قال تعالى : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾
لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢﴾. والذکر هو القرآن الكريم الذي نزل

١ - الأحزاب ؛ ٤٠ .

٢ - فصلت ؛ ٤١ - ٤٢ .

على سيدنا محمد (ﷺ) وحوى تعاليم الرسالة الخالدة، وقد تكفل الله حفظه وصونه. قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١)، بل تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سور القرآن الكريم تأكيداً على خلوده وخلود الرسالة به. قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٢). فهي رسالة خالدة مستمرة محفوظة، وأصحابها مسؤولون أمام الله عنها وعن إبلاغها وشرحها وتطبيقها لإنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى

١ - الحجر ؛ ٩.

٢ - البقرة ؛ ٢٣.

النور. قال تعالى : ﴿ الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١).

إنَّ من واجب المسلمين أن يعملوا بهدي هذه
الرسالة، وإنَّ من مقتضيات ذلك الإيمان باستمراريتها
وصلاحها لكل زمان ومكان، والعمل من أجل تحقيق
مقاصدها في العبادة والإعمار وإقامة العدل، وهم
مسؤولون أكثر من غيرهم، من ولد آدم (عليه السلام)، عن
القيام بهذه الوظيفة والمهمّة، لأنَّ إيمانهم بهذه الرسالة
وانخراطهم فيها كشف لهم أكثر من غيرهم المقاصد التي
أرادتها وحددتها، وبالتالي فإنَّ قيامهم بهذا الواجب فيه

١ - إبراهيم ؛ ١.

أجر وثواب لهم في الآخرة، وفيه منفعة وسعادة وخلص
لهم ولغيرهم في الدنيا.

إنّ العالم كلّه مسؤول عن القيام بواجبات
الاستخلاف، غير أنّ المسلمين أكثر مسؤولية في ذلك،
فهم الأمة الوسط التي ستشهد على غيرها من الأمم يوم
القيامة، وهم الأمة التي أدركت، بما منّ الله عليها، أنّ
واجب الإنسان في الأرض، وتكريمه من الله، كان لعهد
قطعه على نفسه بحفظ الأمانة والقيام بواجباتها.

إنّ المسلمين يقع على عاتقهم العمل لإنقاذ البشرية،
وإنقاذ الكوكب، وعليهم أن يفعلوا ما يستطيعون، وأن
يبدلوا الجهد الممكن، وأن لا يكونوا أداة هدم في هذه
الأرض، بل أداة بناء على الصعد كافة. وعليهم أن
يأخذوا هذا العالم الحائر، الذي لم يفقه الدور المنوط به

في هذه الأرض، إلى حيث يجب أن يكون، وإلى حيث يجب أن يقوم بمسؤوليته.

إنّ العالم سيصبح أكثر استقراراً وأمناً وأقل اضطراباً وقلقاً على المستويات كافة لو أدرك الغاية التي وُجد من أجلها. لو علم بشكل صحيح المقصد الذي ينبغي أن يعمل له. لو أدرك مصلحته الحقيقية في الدنيا الفانية والأخرى الباقية.

إنّ المسلمين لو وضعوا نصب أعينهم تحقيق هذه المقاصد، وعملوا لها بعيداً عن الصراعات، والمشكلات المصطنعة، والطموحات الخاصة، والمشاريع الضيقة، والأهداف المتواضعة أو تلك المتصلة بتحقيق غايات فئوية أو طائفية أو مذهبية أو عرقية أو شخصية أو غيرها. لو أدركوا حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم

لخرجوا من صراعاتهم على السلطة تارة، وعلى التاريخ
طوراً، وعلى غيرها أطوراً. لعملوا يداً واحدة من أجل هذه
المقاصد. لوجدوا في إعمار الأرض وإقامة العدالة
الجامع المشترك بينهم على اختلاف آرائهم الفقهية
والفكرية وحتى العقديّة، ولخرجوا من ضيق المساحة
التي حشروا أنفسهم بها، وراحوا يديرون صراعاتهم بين
بعضهم من خلالها.

إنّ هذه المقاصد لا تشكّل جامعاً مشتركاً بينهم
فحسب، بل تشكّل جامعاً مشتركاً مع غيرهم من أبناء
الأرض، أبناء آدم (الكَافَّة)، فإذا ما تشكّلت القناعة
بضرورة القيام بتحقيق هذه المقاصد لخفت الحروب
والتوترات والقلق، ولتمّ إشاعة أجواء السلام والاستقرار،
ولنهضت البشرية وتطوّرت بما يرضى الله ويُسعد خلقه.

إنني أدعو إلى التفكير الجادّ والعميق بهذه
المسؤولية الملقاة على عاتقنا، نحن بني آدم، وعلى
المؤمنين برسالة الإسلام بشكل أخصّ، لأنّي أرى أنّها
الطريقة والوسيلة التي تخرجنا من صراعاتنا بين بعضنا
البعض إلى ساحة بناء المستقبل وإعمار الكوكب بكل
ما نستطيع، وفي ذلك حفظ لمستقبلنا في الدنيا، وأمن
لآخرتنا، ووفاء لتعهد أبينا آدم (عليه السلام).

وأن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

كتب الحديث

١. أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)، صحيح مسلم، الرياض، دار طيبة، ط ١، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
٢. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق عبد العلي

عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.

٣. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، دمشق، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.

٤. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (.. - ٣٠٣ هـ)، كتاب المجتبى المعروف بالسنن الوسطى، دار التأسيس.

٥. ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ)، الأدب المفرد، القاهرة، المطبعة السلفية، ط ١٣٧٥ هـ.

٦. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ هـ - ٢٥٦ هـ)، **صحيح البخاري**، دمشق وبيروت، دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

٧. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة . ٢٠٧ - ٢٧٥ هـ)، **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العلمية.

٨. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (... - ٢٧٩ هـ) ، **الجامع الكبير**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٦ م.

٩. سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الإنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن (٧٢٣ - ٨٠٤ هـ)، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، إصدار

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر،
الدوحة، دار الفلاح، المجلد ١٩، ص ٢٧٥.

١٠. سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠ -
٣٦٠)، الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني،
تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت،
المكتب الإسلامي، عمّان، دار عمّار، ط ١، ١٤٠٥ هـ
/ ١٩٨٥ م.

كتب تفسير

١. إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٠١ -
٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق حكمت بن
بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي.

٢. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي
(٣٦٤ - ٤٥٠ هـ)، النكت والعيون تفسير الماوردي،
بيروت، دار الكتب العلمية.

٣. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث
العربي، بيروت، ط ٧، س ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

٤. عبد الرحمن بن محمد بن محمود الثعالبي،
تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير
القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، جز ٣،
ص ٢٣٨.

٥. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير،
بيروت، دار القرآن الكريم، ط ٤، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م.

مصادر أخرى

١. ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ)، لسان العرب، بيروت، دار أحياء التراث العربي، تصحيح أمين محمد عبد الوهّاب ومحمد الصادق العبيدي، ط ٣، س ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م.

٢. ابن هشام (.. - ٢١٨)، السيرة النبوية، تعليق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، س ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م.

٣. حسن الترابي، الدين والفن، جدّة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.

٤. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (... -
١١٧ هـ)، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة،
ط ٨، س ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

٥. محمد نعيم ياسين، كتاب الإيمان (أركانه -
حقيقته - نواقضه)، الاسكندرية، دار عمر بن الخطاب
للطباعة والنشر والتوزيع.

٦. مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع
الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ١، س ١٤١٩
هـ / ١٩٩٨ م.

الفهرس

الإهداء ٣

مقدمة ٤

خلق السماوات والأرض

خلق السماوات والأرض ١٠

خلق آدم

خلق آدم ٢٠

٣١ تكريم آدم

٣٩ آدم وحمل الأمانة

٤٦ آدم الخليفة

مقاصد القيام بالخلافة

٥٥ مقاصد القيام بالخلافة

٥٧ العبادة

٩٦ الإعمار

١٣١ إقامة العدل

مقومات القيام بالخلافة

مقومات القيام بالخلافة ١٥٦

الإيمان ١٥٨

الاستقامة ١٧٦

العمل ١٨٩

العمل العبادي ٢٠٠

العمل الانتاجي البنائي ٢٠١

العمل الجهادي ٢٠٦

العمل التعليمي التربوي ٢١٢

الرسالة الخالدة ومسئولة الإنسان

الرسالة الخالدة ومسئولية الإنسان .. ٢٢٤

المصادر والمراجع ٢٣٣

الفهرس ٢٤٠